محمّد خير الدّين

﴿مختارات من شِعره ونثره﴾

ترجمة

مبارك وساط

منشورات جِبر

دمي الذي يرشو اليأس

مختارات من شِعر محمد خير الدّين ونَثره

ترجمة: مبارك وساط

منشورات حِبر

جميع الحقوق محفوظة

- 2020 -

محمد خير الدين

دمي الذي يرشو اليأس

(مختارات شِعرية ونثريّة):

-تقديم -غثيان أسود" وقصائد أخري -الدّفن (قصة قصيرة) -
صفحات من رواية "جسم سالب"-صفحات من رواية: "رائحة شحم
معتق".

ترجمة وتقديم:

مبارك وساط

تقديم:

نُعِتَ محمّد خير الدّين، منذ بداياتِه الأدبية، بكونه شـاعر الاحتجـاج والغضب، وكان غضبه واحتجاجه يتجليان، من خلال كتاباته وحياتـه، على المستويات الادبيّـة والسّيّاسـية والعائليّـة والميتافيزيقيـة... فمن مظاهر فَنّ الكتابة لدى خـير الـدّين، تمـرُّدُه على الفصْـلِ بين الأجناس الأدبيّة، وعلى الحدود التي تقامُ عـادة بين الواقـع والحلم والهلوسة والاستيهام... ممّا يُؤدّي إلى كون رواياته نفسِها كثيراً مـا تجمع بين المسرح والشّعر والسّرد الـواقعيّ والحلميّ والعجائبـي والأوتوبيوغرافي، وقد تتلاقى فيهـا شخصـيات من التـاريخ بـأخرى مُتخيَّلة أو واقعية حتّى، معاصرة أو منتميـة إلى مـاضٍ قـريب، بـل وقد تكون من عالم الحيوانات أحياناً، علماً بأنّ شخصيّة خير الـدّين نفسه كثيرا ما تتحيّن الفرصة للظهور، بصورة أو بأخرى، على مسرح الأحداث في العديد من تلك الروايات. ففي الكثير من أعماله، يبـدو أدبه متداخلاً مع مشاعره الشخصية وذكرياته وأحلامه وانفعالاته...

تتميّز كتابة خـير الـدّين بغناهـا المـدهش بالصّـور الفريـدة، غـير المتوقّعة بل والشّديدة الغرابـة أحيانـاً، وهي تبـدو وكأنّهـا تـدْهَم صاحبَها من حيثُ لا يَعلم. فالدّيناميّة الحُلميّة لديه هي دائما فـي

أقصى زخمها، ويَحدثُ أن يمنح الحرّيّـة لليـد في ممارسـة الكتابـة الآليّة، وأن يستلذّ اللعب بالكلمات، بلْ وخلقَ كلمـات جديـدة (في أحيان نادرة)... كما أنّ تأثير رامبو على كاتبنا واضح، وقد كان يحفـظُ الكثير من أشـعار هـذا الأخـير عن ظَهـر قلب، ويَعتـبر شـعرَه «نـارًا ممزوجة بالدّم». وللسّوريّاليّة حضـورها الأساسـيّ في ثقافـة خـير الـدّين، فمن بين قصـائد مجموعتـه "شـمس عنكبوتيّـة"، هنالـك واحدة في رثاء أندري بريتون، هي "رفضُ الـدَّفن". والشـاعر أنـدري بريتون كان، في زمنه، المنظّر الأكبر للسّـوريالية. ومعلـوم أنّ هـذه الأخيرة كانتْ حركة تجديدية تمسّكتْ بحرّية الخيـال وبالحُرّيّـة على العُموم، وكانتْ، بصفة عامّة، قريبة من الحركات اليساريّة. وقد كـان لها، طبعًا، مُعادون، وصلتْ ببعضهمْ الضَّغينة حدّ القـول، إثـر وفـاة بريتون، بأنّ السّوريالية «ماتتْ رفقة أنـدري بريتـون، بعـد احتضـار طويل...». ممّا نقرؤه في قصيدة خـير الـدّين عن بريتـون: «لا أبكي هذا الدَّمَ الذي وُوجِهَ بالصّراخ المعادي / بـل طـيران جـوارح / حتّى العلوّ الذي يحمل فيه الدّمُ سـماتِه الـتي لا تتبـدّل / (...) / الكلمـة الأخـيرة لا توجَـد / ديناميتُ الكلمـة الأولى يكفي. / يـا أناسـاً هم براميلُ بارودي، يا أناساً مُحَصَّنين ضِدّ الإنسان / يا إنساناً لمْ يَعُدْ له وقتٌ للشّكّ / يا إنسـاناً هـو نظـرة ضـائعة، / حين تبلـغُ القصـيدة

أقصى خُضْرَة الهذيان / وتُعيدُ الصّحراء كـلّ الشّـفافيّة لـذلك الألم غير المتقطّع / الذي كان يُحَرِّكُك / أنـدري بريتـون / (...) / تُواجِهُ ني العين / أبيعُ موتي. / (...) / أحيّي هذا الحصان الذي هوى من حالِق / أندري بريتون / الذي تنبجس منه القصيدة كالجنّية / ...».

ولا يَدور، طبعا، بخَلد أحد أن يعتبر خير الـدّين سـوريالياً أو منتميـاً إلى أيٍّ من المدارس الأدبيّة، فكاتبٌ من صنفه لا يُطيـقُ العيش بين الجُدران العازلة التي تحيطُ بها الجماعات «المغلقـة» نفسـها. لكنّ المهمّ هـو أنّ صـاحب "شـمس عنكبوتيّـة" لم يكنْ "لامباليـاً" إزاء السوريالية التي هي حركة شعريّة تـركتْ بصـماتِها على أحسـن مـا كُتِبَ بَعْدَها من شِعر. كما أنّ تأثيرها علـى شعره واضح، فلولا ذلـك التّأثير لما قرأنا لـخير الدّين: «أُشَمِّسُ جرائمَ الرّبيع»؛ «الأنهار ترمي أكياسَ شموس»؛ «أتحدّثُ عن عينٍ مَصبوبة في كلّ غْرام من العنبر المُرّ»؛ «تموت فجأة / في الواقِع أنت تَشْهَرُ جذورك / في ظلّي غـير القابل للتّوقع حيثُ يتأمّلك بتأثر / رجالُ الساقية الحمـراء/ ترسَّـبْ فوق الرّيح الشّرقيّة التي غطّاك بها نهرُ السّين» (هذا المقطع الأخير هو من قصيدة " وصـف رايـة"، المُهـداة إلى الشّـهيد المهـدي بن بركة).

ثمّ إنّ علينا أن نستحضر عدداً من الأمـور الأخـرى الأساسـيّة لـدى حـديثنا عن خـير الـدّين: فهنالـك انتمـاؤه الجِـ ذرى، "الحَشَـويّ "، الحميم، إلى بُسـطاء النّـاس من أبنـاء الشّـعب، بـل من مختلـف الشّعوب، وتَشَبّعه، خاصّة، بالإرث الثّقافي لأهل الجنـوب المغـربي، وهنالك عدم ممالأته للقارئ، من جهة ثانية، أي أنّه كـان يكتب كمـا كـان ينبغي أن يكتب -حتّى لـو اعتـبر البعضُ كتاباتِـه «مُعَقّـ ـدةً» أو «مستغلقةً» على المتلقّي. ومن خلال ما أشرْنا إليه، نفهم العلاقـة الأدبية الحميمة الـتي جمعتْ خـير الـدّين ببعض شـعراء الزّنوجـة (إيمي سيزيرْ، ليوبولـد سـيدار سـنغور، لِيـونْ غونـتران دامـاس...)، وحضورَ الجنوب المغربي في رواياته...

وُلِدَ خير الدّين سنة 1941، في قرية أزْرُو واضو (تسـمية أمازيغيـة، تعني: حَجَر الرّيح)، قُرْبَ تافراوت، في الجنوب المغربي. هاجَرَ والِـدُهُ إلى الدّار البيضاء، لِتعاطي التّجارة، وبقي هو في مسقط رأسـه حتّى السّابعة أو الثّامنة، رفقةَ أمـه الـتي «لم تَكُن تُحِبّـ ـه، لكنّهـا لم تكنْ تَضـرِبْه» -كمـا كتب في أحـد نُصوصِـه -وجَـ ـدّه، الـذي سـيترك في وجدانِه أثَرا قويّا. أمّا علاقتُهُ بأبيه فستشهدُ توتّرات حادّة، خاصّةً إثر تطليق هذا الأخير للأم. هذه العلاقات ستبرز في العديد من كتابـات خير الدّين، حيثُ كثيرا ما يستعيدُ زمن طفولتـه وأمكنتهـا... حسـب

الشّاعر الفرنسي جان بول ميشيل، وهو صديق حميم لخير الدّين وناشِرُ عددٍ من أعمالِه، فإنّ سِنّ الحادية عشرة، التي عاش خلالها خير الدّين الطِّفل حادثة تطليق الأمّ باعتبارِها تجسيداً للعسف وللظّلم، هي التي شهدتْ لديه مَنْشأ «التّمرّد على الأب والعائلة والدّين والسُّلطة»، هذا التَّمرُّد الذي «سيُحَدِّدُ بعمق مسار حياة الشّاعر».

شرع خير الدّين في كتابة الشِّعر، وهو بعدُ تلميذ بإحدى ثانويات الدّار البيضاء، وكان مصطفى النّيسابوري (الذي سيصبح بدوره شاعراً معروفاً انطلاقاً من أواخر ستينيات القرن العشرين) من زملائه في الدّراسة، وجمعتْ بينهما صداقة متينة كَرَّسَ لها محمّد خير الدّين صفحات جميلة من روايته " حياة وحُلم وشعبٌ، دوماً في التّيه"... أنجزَ خير الدّين مُحاولاتِه الشّعريّة الأولى بالعربيّة، متأثراً بالقصائد التي كان يُغَنيها محمّد عبد الوهاب، لكنّه سرعان ما أدرك أنّ اللغة التي يُحْسِنُها فِعلاً هي الفرنسيّة، فانتقل إلى التّعبير بِها. وتخلّى عن مُتابعة الدّراسة إثْر حصولِه على البكالوريا. بعد الزّلزال الذي ضرب أگادير (1960)، اشتغل لحساب الضّمان الاجتماعي في تلك المدينة المنكوبة، لفترة محدودة (1961-1963)، وقد شكّلتْ هذه التّجربة منطلقاً وخلفيّة لروايته "أگادير"،

التي صدرتْ عن منشـورات سُـويْ سـنة 1967 (كـان عنوانُهـا، في الأصل، هو "التّحقيق"، لكنّ ناشِرها آثر تسمية "أگـادير"، باعتبـار أثـر اسْـمِ المدينـة المُـدَمّرة في أذهـان القُـرّاء وقتَهـا). ونحن ننعت "أگادير" بالرّواية، على وجه التّقريب، إذْ في هـذا العمـل، كمـا في "قصّة إلـه طيّب" أو "حياة وحلم وشَعبٌ دائمـاً في التّيـه"... يَـدمج خير الدّين السّرد والشّعر والمسرح والخطاب الشّفويّ في نطاق ما كان يُسَمّيه بالكتابة (كمـا أسـلفْت). وقـد احتفت الأوسـاط الأدبيّـة الفرنسيَّة بِـ"أگادير"، واعتبرتْ صاحِبَها «كاتباً استِثْنائياً».

عاشَ خير الدّين حياة صعبة، أثناء إقامته المديدة في بـاريس - من أواخر 1965 حتّى أبريل 1979- وكان من الـذين سـاندوه: سـارتر، بيكيت، ميشال ليريس... وفي باريس، تزوّج بِآني ديفْوار، وأنجبا ولداً أسمياه ألكسندر... وانفصلا. وبعد عودتِه إلى المغرب، وحتّى وفاتِـه بسرطان الفكّ في 18 نونبر 1995، واجـه ظروفـاً قاسـية في أغلب الأوقات... رغم كلّ ذلك، تمكّن من إنجاز أعمـال أدبيّـة أصـيلة. من أعماله: في مجال الرّواية: أگادير (1967)، "جِسْمٌ سالب، يليه: قِصّة إله طيّب" (سُويْ، 1968)، أنـا الحامِـض (سُـوي، 1970)، النّبّـاش (سُـويْ، 1973)، رائحـة شـحم مُعتّـق (سـوي، 1976)، أسـطورة أغونشيش وحياتُـه (سُـويْ، 1984)... وفي نطـاق الشّـعر: شـمس

عنكبوتيّـة (سُـويْ، 1969)، هـذا المغـرب (سُـوي، 1975)، انبعـاثُ الأزهار البرّيّة (منشورات الستوكي، الرّباط، 1981)، نُصب تـذكاري (شيرش-ميدي، 1992)... وبعد وفاتِه، ظهرَتْ لهُ رواية لمْ تكنْ بَعْـدُ قدْ نُشِرتْ، من بينها: "كان هنالك زوجان مُسِنّان سـعيدان" (سـوي، 2001)، ومجموعة قصص لم تُجمـع من قبـل في كتـاب: "الـدّفن ومقطوعات نثريّة أخرى وجيزة" (منشـورات وِليم بليـك والشّـركاء، 2009).

في مقدّمته لِ"شمس عنكبوتية" (في طبعتهـا الجديـدة، الصّـادرة ضمن سلسـلة شـعر/ غاليمـار، 2009)، يقـول الشّـاعر جـان بـول ميشال عن خير الدّين، إنّ الكتابـة نَصَّـبَتْه «بطلاً للعُزلـة أمـام كـلّ الثّقافـات... محاوِراً لكلّ اللغات...». ويقول أيضـاً: «لمْ أعهـدْ لديـه ضغينةً على أحد».

تبقى إشارة أودّ أن أورِدَها هنـا، وتتعلّـقُ بواحـد من نصـوص خـير الدّين المُدرجة ضمن النصوص الشعرية، أعني النّصّ الـذي اخـترتُ لهُ عنوان "هذا الدّم". فهو مقتبس من "أگادير"، الـتي تُصـنَّفُ عـادةً كرواية، لكنّ خير الدّين كان قد نشر ما يشكّل قسماً كبـيراً منه تحت عنـوان "دمـاء"، في العـدد الثّـاني من مجلّـة " سُـوفل" (أنفـاس)،

باعتباره أقرب إلى الشعر، كما قال عنه هو نفسُــه... ولن يستعصــي على القارئ إدراكُ الطّابع الشِّعْرِيّ لِ"هذا الدّم".

وسائر القصــائد الأخــرى الــواردة ضــمن المختــارات مــأخوذة من مجموعة "شــمس عنكبوتيــة"، باســتثناء نصَّــي "صــحراء" و"النهــر الجميل"، من جهة، فهمــا من قصــائد مجموعــة: "انبعــاث الأزهــار البرية"، وباستثناء آخر هام: قصيدة "إفريقيا"، المكتوبة سنة 1964، والتي استقيتُها من العدد الثاني عشر من مجلة "مُرَيج التلال" - Le Préau des Collines - الخاصّ بمحمد خير الدين. أما تدخّلاتي كمترجم فهي نادرة، ولم أُبِح لنفسي أن أتدخّل إلّا في حالة اللــزوم، من الناحية الشعريّة أو الدلالية، أي حين لا يكون من ذلك بدّ).

أهمّ أعمال محمد خير الدين

أغلب أعماله نشرتها دار شوي (Éditions du Seuil) ببارس. نشير إلى الناشر فحسب حين يكون آخرَ غيرَ شوي. ونذكر أنّ منشورات طارق، بالمغرب، بالاشتراك مع دار سيراس التونسية، أعادتا نشر بعض روايات م. خير الدين.

Faune détériorée, 1966 عالم حيواني متدهور (نصّ)

نُشِر النص أول مرة سنة 1966

في مجلة

Encres Vives

Agadir, 1967 - أگادير (رواية)

Corps négatif, suivi de Histoire d'un Bon Dieu, 1968

جسم سالب، يليه : قصة إله طيب (روايتان)

Soleil arachnide, 1969 شمس عنكبوتية (شِعر)

Moi l'aigre, 1970 أنا الحامض (رواية)

Le Déterreur, 1973 النّباش (رواية)

Ce Maroc !, 1975 هذا المغرب (شِعر)

Une odeur de mantèque, 1976 رائحة شحم معتّق (رواية)

Une vie, un rêve, un peuple, toujours errants, 1978

حياة وحلم وشعب، دوماً في التيه

(رواية)

Résurrection des fleurs sauvages, Éditions Stouky , 1981

انبعاث الأزهار البرية، منشورات الستوكي

(شِعر)

Légende et vie d'Agoun'chich, 1984 أسطورة وحياة

أغونشيش (رواية)

Mémorial, Cherche midi éditeur, 1991

نُصب تذكاريّ، شِيرْش-ميدي (شِعر)

Il était une fois un vieux couple heureux, 2002

مرة كان هنالك زوجان مسنان سعيدان (رواية)

Le Temps des refus, entretiens (1966-1995),

- L'Harmattan 2000 -

زمن الرفض (حوارات 1966-1995)، لارماتان، 2000

On ne met pas en cage un oiseau pareil (Dernier journal, août 1995),

William Blake & Co. Édit., 2001

لا يُوضعُ مثل هذا الطائر في قفص (اليوميات الأخيرة)، ويليام بليك والشركاء

المُختارات

ا- "غثيان أسود" وقصائد أخرى :

-1- غــثــيان أســود

-1-

مُوشور منفتح موضوع بالصّدفة
بين النّباتات الشّائكة وما من
مُسَوّغٍ للحياة
سوى أنّي أمضي على غيْرِ هُدىً لكنْ
أكثر احتداداً من كلّ الجرادات
غائب أنا عن الضّجّة
تقريباً غيرُ منقطع
في كلّ زاوية لافتة جديدة
الشّوارع تلاقيني
وهذه عقبة
أيكون مُجدّداً ذلك
الصّيد على قمم القصب
كلا
اللافتات تكذب

انظروا إلى ألوانها

سأبدأ مرّةً أُخرى من نقطة الصّفر إن

لزم ذلك

وها هي نافذة تنفتح عليّ أنا

و أُطلّ بكاملي

على أرضٍ خَلاء

-2-

الشّمس ناضجة هذا الصّباح

ولا شكّ لديّ في كون الشّتاء

قد انتهى

فلأنْسَ تلك الغَفوات المختومة بالرّصاص

تلك الأهراء المُعتِمة

حيث لم يكن يدلف ولا حلم

ها حياتي مكويّة مثل قميص

جديد

حياتي المُنقّاة من اختلاجاتِ

الخوف من الصّيرورة

على زجاج النّافذة تَقتطع الشّمس هذا الصّباح
أصْنافاً من الذّهب الأخضر
ما توقّعها أحد قطّ
ويسقُطُ في كفّي تينٌ شوكيّ
كما في فجوات الصّخور التي يُقال
إنّها مسكونة

-3-

قد يَهْوِي من حالق
يتـشـتّت
مـثـلما
فِـرْق النّحل الذي تَدهمه هبّة ريح
اترُكوني لوحدي
مع مُخاطراتي
وآلامي
وندوبي
أُريد بالكاد
أن أحتك بكم

ما دامَ غيرَ وارد أن ننفصل

في كل يوم

عن الأحداث

عن السّلاسل اللاهبة

لكنّهم ليسوا إلا أناساً

نفسُ الأناس الذين يتّخذون أوضاعاً جديدة

أمام شعب

تتأكّله جراحه

في مكانٍ ما هنالك عميان

بُطونٌ فارغة

مُدنٌ ميتة في مصبّ نهر

هل ستبقى حيّاً بعدها

إنّك ترتعش

إذْ تدنو الثّمرة

ثمّةَ مِدْخنةٌ تَقطع الجحيم

عَرَقُك

يحترق مع الصّمغ والحديد

مسكنٌ مقبول

مسكن لا يُتصوَّر

الضحكات مثل حصباء تَفْصِـل

الرّعب في جسدك

مثل الحبر الصّيني

إنّه وقتُ الخروج

- 4-

دمي الأسود أكثر تغلغُلاً في الأرض وفي جسد

الشّعب

جاهزٌ للمعركة

دَمي الأسود يحتوي آلاف الشّموس

الحَقل المأساوي

حيث السّماء تتلوّى

ما عُدت أريد ألواناً ميّتة

ولا

جملاً تَزحف في القلوب المرتاعة

لقد وقعتم

بيني وبين دمي الأسود

جناةً أقْدموا على جرائم قتل

دبّرتْها الخيانة في مرحلة ما غامضة

وماضيّ يقفُ أيضاً

في مستوى

عُـلُـوّي

صاعقاً

شبيهاً بالنّهار الذي يـبزغ من جديد

راشحاً حِبراً

أسْود

دمي الأسود

على رابية

سأُخَرجركم في الوحل المجبول من دمي الأسود

أنتم وأنا

حملة أساطير الماضي

دمي الأسود كان الحليب اللاّهب لأثداء الصّحْراء

أنتُمْ وأنا

مثلما ريح متـنافرة

أطنانٌ من الرّمل

أبديّاتٌ من

الجُزَيئات

تفصل بيننا في الحاضر

ذلك أنّي الدّم الأسود

لأرْضٍ وشعبٍ تمشون عليهما

أزفَ الوقت

الوقت الذي يصرخ فيه النّهر من كثرة ما حمل

مثل ثُعبان

أسود

يسحق الصّخور وأشجار الأرز

حتّى البحر الذي يفهمه

واقفاً

حاضراً

معاً

أنتم في مواجهة الجثث التي تُـثْقل ماضِيّ

جثثٌ

لمْ تيْبسْ ديدانُها بعد

وأنا القاضي لكوني كُنْتُ الضّحيّة

ذلك أنّ دمي الأسْود ينساب في الأرض و في أعماق الشّعب

وهي وحدها الشّاهدة

وماضيّ ينبثق من الرّصاص الذي هشّمه

-5-

تموت

لكنّني أرافقك

في هذا الغبار حيثُ تزحف

لن نطال الثّمرة

التي تجعلها نظراتنا تنفجر

نسقط عند منبت الشّجرة

سنَهب أنفسنا

فلا شيء سَيُعطانا

تموت

لكنّي أعلم أنّك تُفضّل جثماناً ربيعياً

حيثُ ستتضخّم الثّمرة

في الكفّ السّاخنة ذاتها

لِمن سيغرسك وسط المدّ والجزر

نحن

سنُعْطي ثمرة المستقبل الأكثر وَضاءة

ما دُمنا وحدنا نزحف

نحو الشّجرة التي تُنكرنا

ما دُمنا قد اكتشفْنا

في لحائها

طريقاً سرّية تجهلها فروعها

تموت

لكنّني

عارٍ وسط العشبِ الجشِع الذي يُرقّقُني

ويُسنّننا معا

وَيغسلنا من الحجارة

نزحفُ متّفقَين نحو الشّجرة التي تترنّح

لتحْصُل على آخر قطرة

من دمك الأسود

ولتمنحَ المستقبلَ الثّمرة

الأكثر غرابة

والتي تتكلم في أفواه ملايين

الأبرياء

الذين ماتوا

في دمنا الأسود

-6-

ثمّة كلبٌ ينبح في مكان ما

من قلبي

وبلسانه يُريد أنْ يُطارد

أولئك الذين يسْلبونني حياتي

أولئك الذين يسْتمْرِئون شُـرْبَ لترات

من دمي الأسْود

ثمّة كلبٌ يقتفي آثار بنات آوى التي تَـنْـهش

بِـأنيابٍ مُقـضْـقِـضَةٍ حياتي

حياتي النّاقة الضّائعة في هروبها عبر الصّحْراء

حيثُ يَـضيع

دمي الأسْود

حليبُها

يا أسْلافي

كلبٌ يجْري عيناه خارج مَحجِريهما

مبيضّتان بالحليب الضّائع

كلبٌ لمْ يعدْ يرى آثاراً أو سُبُلاً

مع ذلك فالطّريق تصْعد نحو النّافذة

تجلُبُ شيئاً زهيداً

سأجْعلُ منه وستجْعلون

اليقين الأوحد

والنّاقة أضاعتْ

حليبها في الصّحْراء

ربّما يكون قد انْسابَ تحت الرّمال

مثل مياه " دَرْعَة "

ربّما يكونُ قد ملأ البحْر

بآلامي

دمٌ أسْـود

كان حليباً

-7-

مَقْطعاً مَقطعاً أُشكّل اسمي

اسمُك مِسبحة

طويلة مُطَلسمة

هنالك مع هذا أسماء تنطلق

مثلما رصاصات

وتترُك بُقعاً في الهواء

هنالك

أسْماء تصْنع نقوشاً بارزة

أسماء تَقطع العالم

نصفين

اِسْمي ليس نتيجةَ درجة الحرارة

التي هي بالأحرى مُضادّة للطّبيعة

ألتقطُ صدماتٍ

أسحبُ نُسَخاً مصوّرة لواقعي

أَنظرُ إلى هذا التّلميح

وستكون كلمةٌ قد قُطعتْ مني

لو لم أرْتطمْ

باختناق السّاعات

التي هي نحل بارد لكن أحمر

مثل أغماد حشرات تستثيرُ زلازل في الفضاء

هنالك من ينتظرُني

في الخارج

لكنّي أُفضل أنْ أطوف وحيداً

هكذا أندمج

بكثرتي النّازفة

أهبط على القمر

على أرضٍ رطْبة اللامبالاة

أرْضٍ أذْنبتْ إذ أعطتْ صورة الإنسان الجدّية

دعوني أخلق سِيكلوپاً من أجل الوقائع المألوفة

غُرفتي

مَجثم طيور

قلبي الإلكتروني موصول بميتتي المُريعة

أُفضل أن أهبط على القمر

على أرض تعرف أنْ تنطق بِاسمي

البدائي

غريمي

-8-

إطْلاقة نار كانتْ كافيةً لجعلهمْ يسيرون

سـائِـلُوا

الرّوبوطات

آباءَ الهول

وحتّى الجداجد

فهي تعرف كيف تُـنَـمّـي

اللّيل

أحْياناً تجيئُني القصيدة مثلما حجر

لا أحْتمل شيئاً

لسْتُ أسطورة

هذه الكلمة تعني أنْ يمضيَ الإنْسانُ ضد نَفسه

و أنْ ينْتهي بغفوة تُولَدُ منها فراشات

لقد سئمتُ

البارود

سَـمُّوني ذاك الذي يُغوي أو يُزعج

وبإيجاز

غيرَ المرغوب فيه

لكنّه يقين هائل

-9-

الشّاعر هوَ أنت الذي تَضيع

في نفس الوقت مع كلّ دم العالم

مُثْخناً

جَريحاً

مثل جنديّ 1941 ذاك

الذي يَطْرق ذاكرتي

و لا يجد مخرجاً أوسع

من حياتي

ينفتح على فوضى

في البلد ينضُجُ التّين هذه السّنة

لصيقاً بالصّخور ذاتها

إنّه ينزف

لكنْ ها هي الغرفة

لم تعد تكفي

الشّاعر هو أنت

أنت الذي تتغذّى على الحنين

إلى المستقبل

-10-

لن أصفَ عصفوراً يهوي

يَلتهب

فهل سافرْتُ قطّ إلى أبْعد ممّا يَعِدُ به حقل

لا يداي ابتعدتا عن جسمهما الحيّ و لا اللحم

الذي لا يعرف حقّاً

كيف يكتشفُ لي مركزاً

سأقوم بالرّحلة

لأُؤَدّي

العُشُر الذي يفترضُهُ ألمي

وهذا يوم مشؤوم يمرّ أسْرع

من ضجيجه

وظلّي هو دائماً مثل بقعة زيت

مَيْتاتي

رأيتُها

بل إنّي عشْتُها أيْضا

دَعوهم يخترعوا الحجارة من جديد

يَرُجّوا

الأرْض

إذا ما مضوا لا تنبسوا بما يقوله السّاهرون

إنّهم

لا يصعدون عبر ماضيهم

لا يَلدون أشْباحاً

ما داموا

يَغدون ويروحون

ويَفْتِلون الليل

فيما هم يَقْطعون

قلوس سفينةٍ

جاهزةٍ

لِتتجاوزَ حياتي

-11-

أيّها الموت

يا ضبُعاً متطوّعة

إنّك أنتَ ما أطالب به

ما أعلنه

أنهي النّبشَ عن آلامي

هل يجبُ أن أضْربك

أن أصرعك

بذخك يُسَبّبُ لي الاشمئزاز

يا موتُ يا ضبُعاً معروفة

في اللغات التي مِنها جئت

أعرفُ كيف أنقشك

أجعلُ مشْهدَك الجانبي أشدَّ خطورة

أيها الموت

يا ضبعاً سوداء

لكن كيف يمكن طردُك

لا أسْتطيع حتّى أنْ أُرَحّلك

أنا الذي لا وطن لي

ولا سقف

أيّها الموت

يا ضبُعاً نتنة

سأتقيّؤك كاملاً

وأُسلّمك تالفاً إلى شكوكك

كنْتَ جمراً بأكملك

والرّمل كان كحفنة ملح

كان عليّ أن أتوقّع

غضباتك

أيّها الموت لقد كنْتُ بَريئاً

وكان الهواء حانقاً عليّ

كنْتُ سَـلَفَ نفسي

يا موتُ

يا ضبعاً محمّلة بالرُّقى

ثمّة إعصار

يُرَوّض الصّحراء

متجاوزاً غضباتك

ولكن ها نحن حاضرون

من أجل معركة غريبة

أيّها الموت

يا جُثّةً تبحثُ عن جثث

من أين ورثْتُك

خَرعاً

جباناً

والعالم ما هو

ثباتٌ

أيّها الموت

لقد دحضك

أيّها الموت

الخرع

الجبان

موتٌ غير قادر و لو على النّفاذ

إلى أيّ من التّضاريس

إنّه يفرّ

موتٌ ليس حتّى من النباتات

لن تتغلّب قطّ على الإنسان

قطّ على الذّهب المُتأجّج السّائل في ثدييك

العفنتين

أيّها الموت

يا ضبعاً مشؤومة

سأتقيّؤك بأكملك

-12-

لقد قمتُ بانقلاب على ذاكرتي

يُمكن أن أعثُر عليها مُفرغة

في جيب متسكّع ما

سأقتلع نفسي من عجينها

وأَتبع هذا الطّفل الوحيد الذي لا يدخل أبداً إلى بيت

ويصنع الموت بحراذين يابسة

يوماً ما سأنتهك هذه العين التي تُخَبئ البحر

مُبْقياً على المزيج المتحرّك

فهو يرفعني دعوى على تعرّجات الأنْهار

أنْبثق مُقْتضَـباً

جبهتي تمتدّ حتّى الفقاقيع

تُكوّنُ صورة في الجملة الشِّرْيانية

حيثُ الماء بأكمله يتلوّى على نفسه

أَقْشِر قلوس حُمّاي

ومُبْيَضّاً بالجرائم

أوضّح نفسي بذوات السّدس

وبِفَكّ

وإذا كُنْتُ قد جلسْت

خارج جلدي

فذلك من أجْل أن أراني

اسْمحوا لي بأن أغترب

أن أتمرّد

مُحنّكاً

تُـلفظ الأعداد

أتكاثف في البيضة

أتدحرج

مُصْمَتاً

فزخّة المطر قد نصّبتني بستانياً

أنقل الفرجة المنفتحة بين الغيوم

إلى مكان آخر

مكان آخر يرطم الكرى

ويجعلني أتمدّدُ عارياً في زجاج نافذة

وبوجهٍ يحمل آثار سكرة البارحة أشنق نفسي

هنا أُنهي ذاتي

(...)

علجوماً أعمى على الأقل

أسير بداخل قلبي

أشُقّه

كما لو كان دُمّلة

-13-

ظهرتِ امرأة في ضلعي أنا

فأحد المُهرّبين

جاء بها من كثبان الصّحراء

اطمئنّوا

فأبَداً

أبَداً لم أمضِ

أبْعدَ من ظلّي

لقدْ تقيّأتُ كليشيهاتي في فم

عاهرة

قريباً من المدشر الواضح الذي اتّخذ منه خصرُكِ مسكناً

أقول بشكل جيد

الصّخرةَ الوحيدةَ التي وجدتُ فيها الطّفولة ميتة في حياتها

وقد محوتُ

الرّيحَ

الصّارمة

نخاعُها الشّوكي يوجد في متحف الأحافير

حيث كلّ إنسان في كلّ يوم يكتشف

نموذج ذاته

ورقةٌ ثخينة تشطّب عليّ

بعيداً عن كلامي

يُسْروعٌ يأكلني

في الحقول حيثُ أبدو عَصيّاً على الاتّباع

إنّي هنا

وأنت كبيرة مثل

صورتك

الغائمة مثل المقبرة التي لا تستطيع احتواءك بأكملك

فتطردك

عن حجارتها المتبلّرة ونباتاتها آكلةِ لحوم البشر

ذلك أنّك اقتلعتِ ذاتك

منّي مثلما شعرة متصلّبة

وسال الدّم على امتداد ذاكرتي

ليُحَرّر العصفور الذي صدح لي بموتك

-14-

وإذْ تحوّلْتُ إلى ليلة جليديّة

ليلة مشْهودة

فها أنا أتدفّق

أتدفّق بين هذه الأحْجار

النّهار ينــفش نفسه فيما بينها

وفجأة يَموء في عُمق العصور

قط متوحش

غراب

سلطعون

حسب المناشير العظمية التي تُهيّئني

بنيةً معماريّة معادية

خارج محتواي

أنا إربيانة ونجومي

تتقيّح في الطّرق الممدودة

فوق الفجوات حيث

تنْغرس المدن المضخّمة ببورجوازيّتها

المدن النّحيفة والقويّة

بالجثث التي ما زالتْ تبثّ فيها قلقها

بَحر مريض

أخْضَرُ بالحقائق السّائلة

يهمّني الدّم الآن إذْ

تنْفجِرُ كلّ عين

مَجمعَ صُوَر

عين أذْنبتْ إذْ خَلقـتْ بِصدْمة

كَـلـمَةَ

إلكترون التي تتقافز من طُحْلبة إلى طحلبة

وتُنظّف مسالك الأنْهار

ثـمّـة دم

يريد أنْ يَهَب السّماء لأطْراف أصابع

الفلّاح المستحيل تفكيكُه

بالبَـرَدِ المُتساقط

أو بشجرة التّـين المقطوعة

فهنالك يسْري النّفَسُ المُنْبثق من أورام الهواء

وكلّ شيء

بما في ذلك أنا

قد كفّ عن العضّ

-15-

ها هي إذن عملياتُ الصّلب الأبعد عن التّوقّع

والآخر

الذي عاد من جنازة

الذي لم يعُدْ يعرفُ كيف يجيب على الأسئلة

ولا كيف يمشي وحيداً على امتداد

سَرْوات الموت

يبدو انتزاع الموت منه

مستعصياً

إنّه يقول

النّسيانُ هو أنْ يكون المرء في ذاته سيلاً جافّاً

يقول إنّي أموتُ من عطش إنّي أضعْتُ لساني

أتْركوني معه

اتركوني أجلس مرّة أخرى على حافّة نظرته

حيثُ تختلج

أجسادكم المغلوطة

حيثُ تنشَقّ جذورها

في فضاء سكّين

مُشهَرة على الكون

-16-

ما عُدْتُ أحتمل صراعاً يُوقَف قبْل نهايته

أنْ تموت مُحْتجَزاً

في حواسّك

هذا مأمون أكثر

ذلك أنّكُم خرّبتُم الجُملة

غير المعهودة

يا مسوخاً أُسْقطت من جلدها القِشْري

مُرْهقةً بنيران جهنّم

التي ما عليّ أنْ أخلّدها

أو أطفئها كلّية

في مكان آخر هي المحارة التي لا تتقبّل إلا صخبها

الأجْدرُ لَـوْكُ السّماء والأرضِ

المُصْفرّة بالفتن و أنْ أضْحك من نفْسي

أنا النُّصْبُ الحجريّ المُنْهَك بصيف لاهب

أنا الأسْتدارة المكتملة

لكن ها هو العُشْب

ليس صراعِي شحمَ بغل

ولا حتّى تِرْغلّة عَـتّمتْ عليها

حُمرةُ قائمتيها

إنّه حركة من يبتغي أنْ يعيش دون

خلود آخر سوى جراحه الخاصّة

وخُدوشِ قلْبه

أن يصْبح قابلاً لأن يُنْـفذ إليه في زمن

منزوٍ وربّما سيصل إلى أوردة صغيرة

ناشفة

كلا

لمْ تعُد الجرادة غيرَ موافقة

فأين إذن سيكون منفانا؟

-2- قصيدة*

(إلى جان ديفوار)

شموس الأحلام، الرّهيبةُ

جُثَثُ الأقمار والصّحراء، الدّبقةُ

تَكُونُ تحت إبط مُهرِّب البشر عبر الحدود

أكثرَ عدداً من عصافير الأرض قاطبة

حين يرسمُ البحر المُترجّح

نتيجةَ تسمّم الطّحالب المُرّة

صِلة وَصْلٍ بين

السّماء اللّدنة ووجهِك،

وجه الغزالة السّوداء

القبور هوتْ على الأنهار الباردة

كان ثمّة سلاحٌ ضروري: لساني النّاشف

---

* ما أضع له عنوانَ "قصيدة" هو، في الأصل، بلا عنوان.

باصقاً من جديد أحصنة عنيدة

عليها تنطلق الخرافات في الفضاء

ولا غِنى عنها في مراسم إضفاء القداسِة

على ربيع بَقرتْ بطنَه

أقدامُنا المتصلّبة

وها الكلبُ المائل الجسم،

كلبُ التّهديدات المُداوَرة

يتمدّدُ لِصْقَ جلدي

سماءً قريبة تتلقّى القذائفَ

تنهبُ وجوهنا

الأحافيرُ المُحتَدّة البِرَزْ

وهذا المرضُ

على حَدقاتها الرّماديّة جسرٌ

وصمتٌ خلال دبيب هذه العذابات

لكنْ ما الزّهرة إنْ لم تكنْ موتَ الرّتيلاء

أقولُ هذه النّار البيضاء والسّوداء أو البنفسجيّة

بين السقوف النّائيّة العتيقة

أقولُ الطّائرة-الذّبابةُ

الغريبة على أعناقنا الخضراء

ألم نَغرقْ منذُ قرون هذا ما كنّا عنه

نتساءل

أقول هذا الأمرَ التّلقائي هذه البدلةُ

لباسُ العُقاب الذي وُلِدَ ميّتا

لا أقول شيئاً ولْنَمرّ على القليل القليل

من العُرَى المتشظّية

القبور هوتْ على الأنهار الباردة

سَيْرُنا كان شَرَكاً

ولم نكن جارِحِين

كانتْ أيدينا تُرَبّت

على الظّهر الأملس للسّماء البغلة

عيوننا المتشكّلة قبل أوانها

موجّهة إلى وجوهك التي

أزهرتْ مُجدّدا بين الأشواك

حينما

ملفوظةً من قِبَل الإعصار

أنشأتْ أجسامُنا وقد جاشتْ مشاعرها

بِرَكًا في الحُرّية

-3- هذا الدّم

أنا كاتبٌ وزني عشرة كيلوغرامات طولي؟ 0,10، دقّقوا، هذا جواز سفري :

المملكة المغربية

الاسم العائليّ؟

الاسم الشّخصيّ؟

الجنسيّة؟

المهنة: متمرّد

العنوان: يهوديّ تائه

البرْد الرّاتع في غرفتي الـتي تنفتح على الشّـارع، ونافـذتي الـتي لا تنغلق، كتابي المُقَلّبُ بشكلٍ سيّئ، سيْري على غـير هُـدىً، هـدفي، مخّي السّارح الحاضِر مـتى إذنْ سـتكون بَغْلاً بشـكل أقـلّ؟ رأسـي، لُقْيَتِي، حافظةُ أوراقي، وجدّي الذي نبشتُ قبره لأعـرف إن كـان قـد غيّرَ مكَانَه، الموتُ الذي يَرفضني، أنا عَفِن، أنا لِحاءُ الشّـجرة العجـوز المهووسة، لحاءُ شجرة التّفّاح التي تمّ وصْفُها، دمي أو بـــالعكسِ

لِمْفايَ ضاربة إلى السّواد، دمٌ عَدَمٌ، دمُ نحلةٍ، دمي الهائـــل، دمي بلا اسْمٍ، دمي الذي هو ليلٌ دائماً... أُفْرِغُ لوحدي بنــوكَ الــدّم، دمٌ هــو هيــاجُ حشــرة تجــوسُ الحديقــة حيث الصّــداقة معقــودة بين المصاطب، دمٌ مُمَلّحٌ مُدَخَّنٌ، دمٌ زلزال يَنطلقُ من إبهام قدمِي... دمٌ نقود مزيّفة، أنْسَلُّ وليس بدافع الخطأ يُسـلّمني الـدّم كـأني جـانٍ، أمضي إلى ضوضاء المـدن من دون اسـم حقيقي، وفي كـلّ مكـان ألاقي سُحُباً من الذّرّات، على كلّ خطوط الهاتف تَحطّ كـواكب سـيئة النوايـا وأعمـدة مائيّـة، لا أتوجّـه إليـكَ بـالكلام إلا لأننـا نبقى غـير منفصلين، تقول، نحن غير قابلين للانفصال، نحن قابلان للانفصـال، أجيب أنا الذي استُخْلِفتُ في اللحظة التي تمّ خلالها اغتيـالي، لقـد شكّلتُكَ كما اقتضتْ لياقتي، وبحسب مهـارة الفخـاخ، دون إسـقاط شـيء من سـحر إلـه القـودو الـذي أطـاح بـه الأوربي ذو الأسـنان المشـحوذة جيّـداً واليـدين الطّويلـتين، الحـائزُ معـارفَ العظايـة الباسمة، وهنالك أبـو الآبـاء، أبـو السـمكة العجـوز الـتي صـنعتْها الرُّتيلاء المُسِنّة أمام أبِي الآباء وأمّ الآباء، لم أجعلْ منك ندّاً للّـه ولا متحكّماً في كوكب الأرض، لقد منحتكَ صوتي، فكلّ منا في حِلّ من أمر صاحبه، هذا ما تقوله، وأنا أعترض، وأعلن انتسابي إلى حضــارةٍ

للنّموس والأفاعي الفوضـويّة، لا أعـرفُ آسـيا، عن طريـق السّـماع والكتب الضّخمة الجُملِ القوافي الانقلاباتِ حـالاتِ الغثيـان والـدّمُ مثلما مِسْبحة مُهداة إلى الثّـائرين السّيّاسـيّين المنتمين إلى دمي والذين يقطعون الأنسام والزّاد على من يبغي أن يرتوي منـه، طبعـاً أنا أختفي، أيها الدّم- المحرقة الدّم- البنزين الدّم- المعركة الـدّمُ، لا تشُكّوا في قولي إنّي أعاين بوضوح سـوء سـلوك الـدّماء والعيـون المصابة بسرطان الدّم، لا أمرّ دون أن ألحظ السّـدود الـتي يقيمهـا الدّم، الدّم وسَرْدينةُ الدّم السّوداء، شهدتُ عمليات فَصْدٍ من العنق والعانة، كان ذلك على عرش من الحجر المتبلر وعلى الفـراغ الـذي يتوسّط الهذيان، وكانت العـانس المحتـدّة المـزاج بسـبب مشـاقّ العمل في الحقل وحَفْرِ الآبار تغرز رأسَها نفسَه في الحَجر وتضـحك شِـبْهَ نائمـة فيمـا أعْلى منهـا بـلْ على جلـدها ترسُـمُ الـدّكتورة الطّوفانَ، الدّخانَ، الثّلجَ، الحَرْبَ، كانت المنيّة حاضِرة، قلْتُ لنفسـي، فهل لها قلب ودمٌ وجسدٌ يمكنه أن يسحرني؟ لا، لقد كان لها شـعر طويل رمادي، كـانت سـوداء غِربيـبَـةً شَـعْرُها مسـنونُ الأطـراف، المنيّـة لم توصـف، المنيّـة المتسـلّطة على الـدّم لابـدةٌ وسـط أحزاننـا وانصعاقاتنـا التي أبعدْناها عنّـا، ولقـد ضممتُها إلى

روحي، منحتُها قلبي، فجعلتْ منه طائراً يصحبها إلى أيّ مكان تقتُلُ فيه وتُعَرّي، تأكل فيه وتسكر، للمنيّـة نوايـا إيجابيـة، إنّهـا تُـبرّر ولا تُعاقب وقد مارسْنا الحُبّ المُقدّس لا أعلم لِماذا، صنعتُ لها كعكـة بديعـة من مـنيّي ودمي المرشـوش بالـدّقيق، هـذا لن يُنسـيها مُلامساتي، لن يُنسيها قوْلي لها ابْقَيْ- لا ترحلي- أنا- زوجـك- أنتِ- المُصطفاة- مِن- قِبَلي، ستتذكّر ذلك زمناً طـويلاً في كُـلّ الأحـوال، ربّما تَعود في ليلةٍ ما وهي لن تنبثقَ من أحشائي، وستُصَـفّق ومن بعيدٍ تناديني يا سيّداً كأنّي قيصر، يا بومةٌ كأني القُرصان أو الإعصـارُ حاملًا هذا الاسم، تعال لأسـمّمك، تعـال لأكسـوَك لبـاسَ رومـانيًّ قديم، لباساً أبيضَ مـذهلاً، تعـالَ أيّهـا النّسـيان، ولْأكُـفّ عن الظّنّ، ولْأَرغبْ في تجرّع الموت قطرةً قطرةً، علاماتٌ مُشاةٌ سائقو سيّارات راكبو درّاجاتٍ مُلوكٌ أفّاكون كتّابٌ أنساقٌ منطقيّـةٌ جمـارك غـزواتٌ، المساءُ يفتحُ المقـاهي، المصـابيح تقتـات من الشّـمسِ، الإنسـان يُتلف كبده، إنّهم يُرَقّعون دمي، وأشعر بالألم في الأماكن التي تحمرّ من جسدي، يروننني أركض تحت البُسُـطِ وتحت الموائـد المجبولـة من صُـهارة المعـادن، أنشـر العفن في الفسيفسـاء، أُثَقّبُ الأرائـك، أكسرُ سيقان الأزهار، أَسُدّ المراحيض، لا أُولِي أهمّيّة للنّقود التـــي

تسقط من الجيوب الممزّقة لهؤلاء البسطاء الذين يخافونـك، دمي الإغوانة، وأنا دوما أسائل دمي الذي أنعتُه بمطرح نفايات المدينـة، بالفأر المُصاب بالطّاعون، بوباء أقمارٍ نتنة، بنقيضِ كُـلِّ مـا يمنحنـا الهناء فنتشبّثُ به أثنـاء تهاطـل المطـر إذْ يُصـبح الفحم الحجـريّ بثمن الدّم، دمي الذي تقيّأتُه، دمي الذي لا يمضي لتنـاوُلِ الكَرْكَنْـدِ مُضمّخَ الشّارب بـالطِّيبِ مُصـفَّفَ الشَّـعر على الطّريقـة الإيطاليّـة، دمي الأعـرجُ، الـذي كسَـرَ قرونـاً، الـذي يُسَـبّبُ الشّـيخوخة، دمي الخَسيس، دمي العاديُّ، دمي نسيجُ الملبس الشّـتوي الـذي أتعلّم فيه التّخفّي، أتعلّمُ فيه عدَّ كِسَرِ الجليد حُبيباتِ البَرَدِ، دمي الرّصيفُ، دمي اللقيـط الخـانع والمـاكِرُ، الـذي ليس كلبـاً راقيـاً تصْـحبه في الصّالونات سيّدة نُحاسِيّة البسْمة فبسمةُ عَبّادِ الشّمسِ الحقيقيّـة لكَ أنت أيّها الدّمُ المُهَذّبُ الذي ينزلق دوماً صَوْبَ جـذور الفوْضـى، دمي الجذامُ، دمي مثل سانْ جوستْ على منصّة الإعدام، دمي إنّـكَ ترتجف، دمي إنّك تُنَصّبُ شِرّيراً حقيقياً، دمي إنّك تُطْلِـقُ النّـار، دمي عينُك إرهابيّة، دمي لقدْ هربتَ من رُكامِ حصباءَ أنْشَأتْهُ يَدٌ مُتمرّسَةٌ، دمي الذي فيه تُقرقع سَلاسلُ تَطِنُّ أجراسُ قصور، دمي الذي يقضي مساءً سيئاً وسيقضي ليلة رديئة ويومَ إثْنين من التّجاعيد، دمـــــي

أنت لا تربح في اليانصيب، دمي أنت تسحب خلفك صلصتك الخاثرة التي انبثقت من نُسْـغ كـواكبَ ذُبِحتْ على الصَّـوان وفـوق شـجرة الخـرّوب على آخـر الـدّوائر الحلزونيّـة للدَّوْخَـة... دمي اليهـوديّ المليـاردير، دمي المغـربي البروليتـاري، دمي الـذي لا يَكتب، دمي الذي يرشو اليأس، دمي الذي يُوَبّخ الغيوم والأشجار المُسِنّة...

-4- قصيدة

الزّاحِفُ صوب سُرَّتي التي من سيول باهتةِ الحُمرة

والذي يضرب أعناقَ ياقاتي المنبهرة بالبروق

ساطورٌ كان يحدث أن يضحك

هذه السَّماء الخالية من الملائكة استعادتْ كُلَّ أظافرها

لكنَّ كتلة القنّبِ الخفيَّة تدور بشكل سيّئ

في الأساس نفسِه من حائط الأهوال

الزّاحفِ صوب سُرّتي التي من سيول باهتة الحمرة

قَطِّعوا إذن جسوم عصافيري الوحيدة

أتحدّثُ عن عينٍ تُسكب في كلّ غُرام

من العنبر المُرّ

يُدخَّن يُبصَقُ على هذا المُلْصَق الدّعائي لكوكب

يهوي فيه صوتي القزمُ الأسودُ

شبيهُ صوتِ العَلَقة

قطّعوا إذن جسوم عصافيري الوحيدة

ها التّهديدُ دونما فاصلة قد جُهر به
من طرف مساميرَ معلومةٍ لديَّ انقلبتْ صقوراً
شاءت الصّدفة أن تقبعَ هاهنا طريقٌ
وأعناقُ أطفال تبجَّحَ بهم العضوُ الجِنسيّ
المُضخّمُ بالشّيلم
والنّومِ
وها التّهديدُ دونما فاصلة قد جُهر به

حين تنغرز أظافرُهُ في اللحم الأزرق
للحُسام
يَجأرون دوماً بماذا ويبكون مَنْ
مخدوعٌ أنا بالصّمت وهذي ليلةٌ سَكْرَى بلا رَحِم
خلالها تَطيرُ الحشرةُ عقيلتي
أقربَ من أيّ قارِبٍ يستطيع البحر أنْ يتذكَّره

حين تنغرز أظافرُهُ في اللحم الأزرق

للحُسام

وَثائقُ كلّ النّيازكِ النُّحاسِيّة ذاتِ الهلوسات

ومسألةُ المستعمرات الفينيقيّة هاته

تجتاحني في كامل شُسوعي

تكتسحُ ظلّيَ الذي من نبيذ أحمر

بالصّرخةِ الأنثى لصيّاد الطّيور

لكنْ ما دامتِ الشّمسُ حبّة فاكهة تالفة

لها ظلٌّ شهير

فهذا الظّلّ وخيطُه يتسلّلان إلى جِلْدي

وثائقَ لكلّ النّيازِكِ النّحاسِيّةِ ذاتِ الهلوسات

وأرحل بما تبقّى لي من أناي

الذي صرخوا في وجهه

أرحلُ ملتصقاً بالرّصيف

رفقةَ تحدِّيَ ذي ألقِ الرّملِ أشربُ

تحت الشَّجرة الكثيفةِ الأوراقِ حيثُ ثعابيني الزوابعُ

تَكسرُ النَّايات

أرقص منبهراً على شوكةِ بؤبؤيك الخرقاء

وأرحلُ مع ما تبقَّى لي من أناي

الذي صرخوا في وجهه

أُرْغِي بقصائد منعتْها الرّقابة وبمشروبِ أبْسَنْتٍ

لم ينقشع أثرُه أبسنتِ رُكَبٍ مائلةٍ في تحليقها

أُوَجِّهُ شتائمي للرّخوية القابعة في هذه القوقعة

البيضاءِ حيثُ ثبَّتتِ العادةُ قُضبانها

التي تسمّيني الأسدَ المنبجس كالسّائل

الأسدَ ذا السّترةِ غير المألوفة

سترةِ جساراتٍ يعرفها

المستنقع ذو المكانة العليا

أُرْغي بقصائدَ منعتها الرقابة وبمشروبِ أبسنتٍ

الآن أرمي إليكم بِرِئتيّ الطّيّارتين الورقيّتين

بالدّقّة التي تُطَرّي فضائي

وأقول

الربيع لا يوجد لقد انكسرت فَقَارُ ظَهْره

إذ تعرّضَ لهبّة ريح صوتُها غيرُ مُمَيَّز

(كما النّخلة-السّجن

التي تكتبكَ أنتَ نفسَك وتُدهِشك)

الآن أرمي إليكم بِرِئتيّ الطّيّارتين الورقيّتين

-5- أراضٍ صُلبة

مُنهَكٌ أنا لكوني عارياً بين عجائب

حياةٍ غريبة صفراء

حيثُ صمتُكِ وولادتي الحقيقية

يقتاتان من الموائد التّذكارية

للعدم الرّقيق البارد

أنتِ النّجمة التي تجرّ خلفها

غيابياً

دماءً هائلة

مُنهَك لكوني كُسيتُ بياضاً بمفعول

بسمات أناسٍ يَمشون

إلى الخلف في شارعٍ

لن تشرب فيه لا كلماتُ الكسوف

ولا أسوأُ الحكايات الأسطوريّة

الآن أغادركِ من العين الممنوعة

على ارتفاع الزّمن الموقوف فوق ركبتيّ

اللتين ليستا بالخضراوين ولا بالسّمراوين

لكنّ

الضّحكة المنيعة التي تتطاير منها عقبانٌ

تزدري معاذيرَ سُحُب الرّمال

التي تمنحها حنجرتي عُشراً مقدّساً

إلى كلّ فَـتـيـتَـة خُبز

مثلما يرحل الأفق الطّبيعيّ

من كلّ كلمة تمزجها

بكحول أراضٍ حمراء صُلبة

في إفْرِيقْيَات الدّم

(...)

هكذا يمكننا أن نعتقد أنّ كلّ مستنقع

يعرف كيف يَبيضُ بيضته

ملغياً ولادتي المزدوِجة

متشبّهاً في ذلك بالوَزَغَة

إنّه أنا من أَقْمَع

في هذا الزّمن الكسير

زمن المساعي غيرِ النّاجحة للهاوية

-6- آنّيغاتور*

إنّه حُلْمٌ له جِلْدُ أُمّ أربع وأربعين يمتطي ظهري
يَبْهَرُ ظلّي إنّه سمكةٌ إنّه خاصرةٌ لا تستكين
دمُه يضعُ جسمي الذي هو جسمُ الرّيح الشّرقيّة
على فَمٍ مُجلّل بالرّماد وعلى الحِبْر
إنّه نفْثَةُ هَوْلٍ لا يُعَوَّض إنّه عصفور حفّار
ومعه الأوراق التي تَصْحَبُهُ مهتاجةً
عبْرَ السُّيول السَّريعة حيثُ البروق تُطْلِق
مقصّاتنا من إسارِها
إنّها هي التي تُمدد
هذا الظّلَّ المكوّن من حواجزَ مُرتجلة
ومن حشراتٍ

آنيغاتور: كلمة منحوتة من كلمتين: آنّي، اسم زوجة الشاعر وقت كتابة القصيدة، والكلمة الثانية هي الأليغاتور، وهو القاطور (تمساح أمريكيّ)، والكلمةُ كاملةً تسميةُ مداعَبة.

زَحفت عبر دماغي

تُمدِّدهُ خلفي

حيث أجعل مهاوي عينيها تنفثُ

نجوماً صقيلة

إنها هي حين أتبرَّع على نفسي بليلة

شَوَتْها شُموسٌ

وكلماتٌ ستكسر أنابيبكم خلال نهار

مُشتبَه في أمره!

-7- صحراء

أيّها الكلب المتوحّش، العَقُور، أترغبُ في التّعبير
عن صحراءِ ظلّي الأليمة؟

يا ابنَ آوَى يظهرُ في الليالي غيرِ المُقمرة،
تعالَ وارقُصْ على الجرح الزّاهي للنهارات الهائجة.

أمنحكمْ ساعاتٍ مرضوضةً يَنْضَحُ
قيحُها من منقار الغُراب.

مدينةٌ مأهولة بالمجانين تنبش
مِزَقَ طُرق.
ذَرّاتي تَطِقّ كشُهُب
في الدّموع المَحْبوسة.

أيّتها الضّباعُ الهائمة،

حطّمي هذا الجسد

على صَقيلات الغيوم.

-8- النهر الجميل

الصيف مكسوراً على رأسك، مستَهلَكاً
في أقداح من طين جافّ، الصيف
مطروداً بمفعول الشاي، مُخمَداً،
يجأر بالصديد عبر مسامّي.

جرعة الماء تلك التي تبخرها
كل حبة ذهب، هي الحلم القديم
للمقيم وللهائم...

إنه جاف النهر الجميل حيث كانت شفتاك
توجّهان قدميّ المتشققتين، جافان هما نهداك.
النهر الجميل عَلَتْه العلقات.

-9- إفريقيا

-1-

أستطيع الآن أن أفهم الحياةَ بشكل أفضل

ضوءَ النهار وهو يندلع من جذور أشجار ميّتة

طيرانَ عصفورٍ في روحي

لستُ المِرآة المنفتحة لكلّ صورة

لستُ جدار سِجنٍ ملجأً للتعاسات

الإنسانُ السّخيف يغني لدى العودة

من خسارةٍ خالصةٍ للنسغ

كان يتُوق إلى قهر إخوته من الحليب من الدّم

لم يكن إلّا علقةً هائمة في جسد مشترَك

ريحٌ هادئة تَقطعني

تصعد مني مثلما من شِعب

تَلحق بي الطفولة في نكهة البِرك

أخرج من ذاتي

منزلاً خَرِباً

الصيف يستقرّ فيه

سيخرج منه الصيف كما دخلت إليه

وكثيرون سيمضون ليتعفّنوا في الحقول التي يَحنيها سرٌّ ما

نُسِيَ اسمه

في السنة الفارطة أحببتُ في سيل من التبغ الأسود

تدحرجتُ لأتعلم الأشياء من جديد

أفكاري تركتْ في فمي

طعمَ لوزٍ مُرّ

الصّخر والرمل عانقاني بحرارة

قلبي سال دمه

مثل حِرذون بُقِر بطنه

في تلك السنة أشعلتُ النار في الصحراء

وانبجس أشباح

تعرّفتُ عليهم

كانوا فعلاً أسلافي

-2-

إذا قلتُ لكم إني الذي ما عاد مرغوباً فيه

الذي يتكلم ليقول

ما يُمنع قوله

إذا عاتبتكم على كونكم طاردتموني

ثم رميتموني بالرصاص

هل ستفهمون

أنا ذلك الميت الذي لا يُحتمل

الميت الذي يثق في الشعبذة

في عدم هروب الزمن

ذلك الميت الرهيب الذي يُبصَق في فمه حين يَهوي وجهه ويُبَقِّع

قارعةَ الطريق يسحقُه آلافُ العائدين إلى بيوتهم بَعد

المشاحنات الكبرى

هذا ما يريده الذي يراني من بعيد

الذي لا يجرؤ على اجتياز الآخرة

التي تفصلنا

أقول الأعمى الحيّ الذي لا تُسافر نظرته

فيمَ تهمني شتائمه

فيمَ تهمني العُصارات التي تتعبّأ بها الورقة

الخضراء

تبقى الشوكة وإبرة النحلة التي ها هي قد جَفّت

العسل البرّي الذي يصعد

من أوردة الميت المحروقة

أنا ذلك الميت الذي يُضحَك منه

الميت الذي يستمرّ لسانه

في النزيف

-3-

لكنْ في العشب ما تزال تَجول

يرقة دورات الزمن السحيقة في القِدم

وَعْدٌ بأن تُعايشوا

أولئك الذين تجتثونهم

آخرون ينتظرون «مهمة منتهية»

يقطعون أسلاك الهاتف

التي لم تعد تنقل ولا كلمة

خارج على القانون يتسمّر إلى صوته

وكلهم

كلهم يتشبثون بنجمتهم سيئة الطعم

التي يتذوقونها بقلوب منقبضة

جَردة حسابِ جنسٍ حيث الزحف من شجرة إلى شجرة هو شَعيرة

أنا هذا الشعب مجتمعاً

في شخص واحد

وحدي أقطف التفاحة

تتعفّن بسرعة في الصحراء

أواجه العاصفة الدنيئة

عاصفةَ السّادة

وحدي أموت من أجل هذا الشعب المستدرَج إلى

اللامبالاة

شعبٌ ما تزال تسبقيه

مياهُ بئرٍ قذرة

فلْيحيلوني إلى مسحوق

فأنا حَجَرة وزنها ثقيل جِدّاً

تسدّ فوهة أكثر من منجمٍ

غير أني أسيرُ جنب الظل المهترئ للشعب

أحقنه بدمي

في العشب أكتشف فجأة أنني نواةُ كلّ العذابات

لكنني سأمضي وحدي تحت المطر

وأنا أضم عدوي سأُصبح لهباً

ونموت معاً

وأبديتي ستكون قولاً

-4-

لقد رأيتُ يسوعات مصلوبين

لكنْ أيديهم هل فهمتُها

هي لم تَعْنِ للشمس سوى طلعة

هي لم تدرك إلّا نهايةَ معاناةِ مريض

أيدي حُب واحد

مؤهّلة لكسر أصلبِ القضبان

والجدارِ المُصمَت أكثر من غيره

أيدٍ تنغمس في الصراع حتى آخر لحظة

رأيت يسوعات آخرين بلا أشواك يُصلَبون

والرّشقة كانت كمطر في الصيف

بلا أشواك أتدرون ما يعنيه هذا

لكنّ الحصاد لا يزال بعيداً

حصادُ ذهبٍ ودم مُقابل جوع شعب يريد

أن يستمرّ في العيش

الرّشقة كانت كمطر الصيف

البِذرة التي لم يكن طائرٍ يجرؤ على نَقرها

البِذرة حيث الحلم يصبح الحقيقة الوحيدة

فيمضي في المجال الواسع كجزيرة

غير مسكونةٍ ملايينٌ من الناس الذين بلا مأوى

الذين ما زالوا يتدثرون ببقايا قلوبهم

رأيت يسوعات يُصلبون في الليل

ثم جاء الفجر أحمر وأبيض

من بين ذاكرة النخيل وأيقظني

وكان ذلك كلّ شيء

رأيتُ

يسوعات يُصلبون

يسوعات

اسْألوا الطرق عن أسمائهم

-5-

لن يخترق لُعابي قَطعاً حروف العلة النيئة التي حضرتْ

ولادتَك طفلاً حَذراً

لُعابي هو المِلْك الوحيد ولن ينتقص من دافع

إفراطك

أهو ذا وقت الذهاب إلى كوكبٍ ما يعيش أزمة

أو إلى بُطَين يهدد واحدة من ديدان البطن

تدور في ظلمة دانية

سأمضي في هذا النفق

إنْ كان يؤدّي إلى حالات امتعاضك

ومُهمتي ستكون هي أن نشترط على الطريق

موافقة الحصان

طفلاً حذراً

كذلك كان الثعبان الذي ينحشر في الرمل إن أحسّ

بأدنى خطر

غُددي التي كبُرتَ فيها تحتوي حبراً مسموماً

-6-

رأيت رجالاً يسقطون

يوماً بعد يوم يتكرّر الأمر

ذِكراهم ضاعت

بنفخة غريبة على الأرض

لا تبكوا أيها الأموات المتجدّدون

قصيدتي هي

الصليب الهائل الذي يناديكم

هي حملةٌ على أولئك الذين يَجنون عليكم

قصيدتي جاهزة لترتفع بكم إلى أعلى

من إكراهات سطح الأرض

رأيت رجالاً يسقطون

إنهم ينشرون إشعاعهم أينما حسبتُ أني أسمعهم

لكنهم يبقون بعيدين عن المروج حيث فزّاعات فحسب

تَفرض قوانينها

-7-

آخرون سيُعلنون عن وجودهم الذي بلا جدوى

مُسايرينَ لِدرجات اختفاء الزمن

آخرون سيتنكّرون نهائياً لمطامحهم السالفة

آخرون سيمضون للركوع أمام رُفاتهم

ويستمرّون في التمجيد

آخرون سينصبون تماثيلهم التي بكاملها من ضباب

مع اشتداد حُلْكة

لَيلِهِمْ

آخرون سيموتون بلا عراقيل

هؤلاء سيكونون قد شَرَّبوا الإنسان حياتهم الخاصّة

هؤلاء سيكونون قد دشّنوا عهداً يكتسب فيه الدّم أخيراً

ثمنَه وستكون تلك

بدايةً حقيقية ونهايةً حقيقية

-8-

أتحدث إلى المحرومين والعراة الذين يتخفّون

أتحدث إلى المنبوذين

كلمتي هي المتاع الذي نتقاسمه

أتحدّث إلى من هم بدون مأوى وإلى المُرعَبين

كلمتي هي ملجؤنا المشترك

مثلَهم يتمُّ قتلي بيديّ

لكنْ مثلهم أريد أن أحيا من جديد

-9-

إنها السّاعة المَهيبة

الساعة الأخيرة

إنها تَطلع من الأحجار الأولى

أرى نفسي فيها مجدّداً

كما هواءُ الماضي

فقاعةً مشترَكة

وأمنح نفسي

منحوتةً جديدة وتراجيديا

على سماء مشويّة كما يجب في قلبي

وأمنح نفسي

لكن لا تقولوا شيئاً

أنصتوا إلى قلبي

إنه يضحك مثلما طفل

ذلك أنكم قد فقدتم قلوبكم

(الدار البيضاء، 1964)

II- قصّة قصيرة :

الدّفن

في هذه الآونـة يُـزيح الثلج عن سـطحه البقـع الترابيـة السّـوداء، وهنالك طفل يلعب فوقه. لقد هـرب من الـبيت منـذ وقت طويـل ولم يعد يتذكّره. هو في عالَم جديد، عالَم كان أحدهم قد تحدّث له عنه حقّاً، لكنْ بصورة مُبهَمة. فكمـا لـو أنّ كـلّ شـيء ينتهي ويبـدأ هاهنا، كان الطفل يتساءل عن هذا الامتـداد الثلجيّ ويخمّن وجـود كائنات حيّة في مكانٍ ما قريب. لكنْ بمـا أنَّ ذاكرتـه بقيتْ مُنغلقـة وعديمة الجدوى، فقد أحسّ بحاجة غير محدّدة، لتَواصل مـا، إن لم تكن فيه حرارة، فسيكون على الأقل مُطَمْئناً.

ينظر آناً إلى قدميه وآونة إلى الأفق. لا يفهم شيئاً من هذا الصّمت الأبيض المَهيب الذي يزيد من وطأة عُزلته. مع ذلك، فثمة شيء ما يهتزّ بداخل حنجرته، وفي أغوار لحم بدنه، تتشكّل رقّـة تكـاد تكـون ملموسة.

يجري الطفل صائحاً بكلماتٍ غير مفهومـة. ثمّ يتوقّـف ويستشـعر دائرةً قاطعةً تتكوّن وتضيق حوله، فيما تكتسي كلّ الأشـياء هيئـات جديدة. ويتهزهز هو كما لو أنـه يريـد التخلّص من قشـرة سـميكة

وثقيلـة تَشـلّ حركتـه. في تلـك اللحظـة رأى ضـوءاً تلتقطـه ظلالٌ تتذبذب.

يـرتعش الطّفـل ويسـقط. بعـد نهوضـه، يُحَـدّد النظـر إلى الثقب المضيء ويتقـدّم بحيطـة. يفتح عينيـه من جديـد ويَفركهمـا. أمـه تحمله بين ذراعيها. هنالـك امرأتـان جالسـتان في أقصـى الغرفـة. صغراهما تبكي. رجل اكتسى رأسه بالرماديّ يذرع الغرفة ذاهباً آيِباً. يبدو منزعجاً ولا يتنازل للنظر إلى الطفل الذي يبتسم له.

"سيُشفى"، قالت الأم. ثم صمتت قليلاً وأضافتْ: "لقد كان الطبيب على حق". المرأتان رفعتا عيونهما نحو الطفـل. الـتي تبكي، نَخـرتْ ونظّمت شعرها المضطرب. جلس الرجل على فـروة خـروف. كـانت تقاسيمه المُجوّفة والجامدة كأنّمـا تنمّ عن سـيطرة وسـواس مـا. همهم ببضع كلمـات، لكنّ أحـداً لم يُعِـره أذنـاً صـاغية. إنَّ الشّـك بالتّأكيد يخامره بخصوص صحة الطّفل. كان، هـو، قـد مـرّ بأوقـات مماثلة، حين أُخِذ وهو صغير جِدّاً للعيش عند أقرباء كـانو شـديدي اللطف إلى حدّ أنّه كان يفضّـلهم على والديـه. منـذ ذلـك الـوقت، ترسّخ لديه الخوف من مثل هـذه اللحظـات. الحيـاة لا تعـود، إنهـا ترحل مرّة وبشكل نهائي. بسمة طفلك تُفسّر لي كثيراً من الأشياء.

خالته كانت ممدّدة على سرير نقّال. كانت تتكلم، لكنّ وجهها كـــان يعكس شيئاً ما فظيعاً، ربما كان هنالك مِسخ أسود يلامس قلبها.

هي لن تموت، قال الفقيه، والفقيه كان شديد القرب من اللّٰه. لكنــه كان قد أخطأ. فالموت يأتي من المــريض وليس من السّــماء. لقــد جمّد خالتي المسكينة بعد أن جعلها تقول مــا لم تكن تريــد قولــه. لم أعد مُتعَبة. لم أعد أتألّم. اذهبــوا إذن جميعــاً. امضُــوا إلى حــال سبيلكم! أنتَ، ابني، ابقَ هاهنا... ثمّ ماتت، مساءً، فيما، في البعيــد، بين الأشجار، كان للزيزان غناء مختنق تحت وطأة الرطوبة والظلمة. لقد اهتزّت للحظة وجيزة ثمّ هــدأتْ فجــأةً، مفتوحــة العيــنين على السّقف. كانت عيناها مغرورقتين بســائل أزرق! لقــد ظنّ أن خالتــه تتظاهر بالنوم لتدفع النسوة إلى الانصراف. آه! خالته الطيبــة جِـ دّاً!

قبل يوم واحد، كانت قد تحدثت إليه عن تلك الجولة المــأثورة عــبر الجبل. تريد أرنبا حيّة، ستحصل عليها. تريد حجَلةً، ستحصل عليهــا. سنمسك أرنباً... أنا عدّاء حقيقيّ، أليس كذلك، خالتي، همسَ لها في أذنها. ستكون لديّ حين نعــود إلى القريــة، ســأذبحها ونأكلهــا نحن الاثنين. بعد ذلك، سأُنَشّف جلدها وأستعمله لطبلَتِي. ســترافقينني إلى حيث السّيل، فسأكون في حاجة إلى خشبِ شجر الغار.

هاته الذكريات، التي هي مثل البروق، تُمزق الذاكرة مثلمـا يفعـل السكين الحادّ بعنق الخروف، وما تجعله ينبجس، عوض الدم الفـوار الساخن، هو أطيافٌ لأناس سرعان ما تُلاشيها مجريـات الحيـاة، فلا يبقى منها سوى فكرة ما. أقول إنّ ابنك لن ينجو بجلده، كرّر الرّجل. تنظر إليه المرأة بإشفاق وتهز كتفيها. تكون له أحيانـاً بعض الأفكـار النشاز. يكاد المرء يحسبه مجنوناً... تعود إلى هدهدة الطّفل كما لو أنّ شيئاً لم يحدثْ. مع ذلـك، فالكلمـات الـتي صـدرت عن الرجـل تنزلق على امتداد جسدها وتنقلب إبراً تنغرز في بطنها الذي تشـعر أنه يتشنج. الطفل لم يعد يبتسـم. يتفـرّس في الرجـل بمـا يشـبه الاستغراب. كأنه يقول: تريدني أن أموت على أيّ حال، كنتُ أظنّ أنك تُحبّني. الحاصل أنك تكذب. لن أموت! بالمقابـل، كـان الرّجـل يـرى الموت بوضوح ويعتقد أنه يجعل الطفل يقول ما لا يريد أن يقولـه، مثلما كان قد فعل من قبل مع خالته.

أنهضتْني النسوة. قلن لي صائحات: خالتـك مـاتت، وأنت تتحـدّث إليها. أجبتُ بأنها نائمة. لم أُرد أن أبوح بما كنـا ننـوي أن نقـوم بـه معاً. نَوْمَةُ خالتي تَصَنُّعٌ ناجح. انحنيتُ عليهـا مجدّداً وقلت لها إنه ليس هنالك من يعلم شيئاً عن النُّزهة القادمـة. لكن النِّسـوة بَقِين هاهنا. أكبرهنَّ سنّاً كـانتْ تُـردِّد دعـواتٍ دون أن تكـفَّ عن محاولـة

إنهاضي، وبقدر ما كانت تتعنّت كنتُ أتهكّم عليهـا أكـثر. أمي كـانت تبكي في إحدى الزّوايا، وتتمخط في طرف حَايِكها.

المرأة جلست على كرسي عالٍ عتيق. الطّفل أغمض عينيـه. وجهـه شحُبَ مجدداً. خطوط مديـدة من العـرق تُغطّي الوجـه وتتسـاقطُ قطراتٍ صغيرةً على رداء الأُمّ.

الثّلج! الآن أصبح الثلج في لون الرّمـاد. تنبثـق من خلالـه سـطوح تَنداح من حولها ريحٌ محمّلةٌ بالغبار والحصى، سرعان ما تهوي على نفسها متلوّيةً بعنـف. الطفـل يتلمس طريقـه بيـأس وسْـط هـذه الزوبعة. الريح تدفعه إلى الخلف كلمـا حـاول الاقـتراب من سـطح، وتَكيل له ضرباتٍ رهيبةً على الوجه والصدر والبطن. الطفل مُجَمّد. لديه إحساس بأنّ هنالك دوابَّ صغيرة تفترسـه لتجعلـه يتخلّى عن رغبتـه في قلـع هـذا السـطح، القـريب جِـ دّاً، والنفـاذ إلى الـبيت التحتأرضيّ حيثُ سيكون، ولا شكّ، أكثر ارتياحاً.

إنه لا يزال يرتعش، تقول الأم، أتخوّف من أن يكون هذا المجنـــون المسكين على حَقّ.

المرأة العجوز قالت لأمي بأن تدعو الفقيه، لكنها لم تجـرؤ. ذهبت إليه العجوز بنفسها. وعادت وهو معها. نظر طويلاً إلى خالتي وقال:

تصرفوا بحيث يكون كل شـيء جـاهزاً. أنـا مـاض على الفـور لأُعْلِم المؤذّن بأن يُعلن وفاتها غداً صباحاً. وفي اللحظة التي كان سيخرج فيها أمسكتُه من يده وسألتُه عمّا كـانوا يتهيّـؤون لفعلـه بخـالتي. أجابني بأنها كانت ميّتة وأنهم سيدفنونها في اليوم المُوالي، لكنني لم أُصدقه. بل إني أردت أن أحدثه عن نزهتنا. أستطيع فعلاً أن أفعل ذلك لو لم تكن الخالة هاهنا. أوشكتِ العجوز أن تصفعني. وهـربتُ فسمعت صوت خالتي.

وقتذاك عُدت. كان ذلك صوت بومـة. كـانت قـد حطّت على حائـط الشرفة. كان لها عينان كبيرتان. بمجرد ما رأيتها، تـرنَّحْت. بقيتُ هي ساكنةً. في عمق بؤبؤيها ذَوَي المظهر الزجاجيّ كانت تجري مشاهد غير مألوفة. أردت أن أتسلل حتّى مكانِها لأمسكها وأعطيها لخـالتي، لكن العجـوز أوقفتـني. في هـذه المـرة، ضـربتْني. فشـتمتُها. أمّي نهضتْ وضمَّتْني إليها وهي تعتذر عمّـا أقـدمتُ عليـه. بعـد ذلـك، قسَرتني على الجلوس على ركبتيها.

يتمكن الطفل من التشبث بأوراق شجرة نصفها مـدفون. مـا عـاد يشعر بقلبه ينبض. رأسه الذي تضطرم الحرارة بداخله يُثقِـل عليـه. فجأةً، شلّال ماء يهوي داخل بطنه! يبقى للحظة معقوف الجسد، ثم

يفتح فمه فيندلق منه رَشقٌ طويل ومـؤلم. إنـه يتقيّـأ، تقـول الأمّ، سيفيده ذلك بلا شك. يُلقي الرّجل نحوهـا نظـرةً خاطفـة ويتقطّب وجهُه. تُزيح ما علق بذراعها وتأمر إحدى المرأتين أن تُنظّف الأرضيّة. حين اسـتيقظتُ، كـانت الشـمس بالكـاد قـد طلعتْ. مشـيتُ على أصابع قدميّ حتى المكان الذي كانتْ خالتي ترقد به البارحة، لكنهـا لم تعد في مكانهـا ذاك. قـررتُ لحظتهـا أن أفتّش الـبيت بأكملـه. كانت رائحةٌ لاذعة وحادّة قد انتشرت في الجو. في الطابق السـفلي، وجدتُ نساء. سألتهنّ عن مكان وجود خالتي وأجبْنَني: عنـد اللّه. لم أفهم معنى ذلك وألححتُ في السّؤال. أخيراً، قُلن لي بأنّي سـأفهم مستقبلاً. خرجتُ، مُغْضَباً، حاسباً أن خالتي قد خـدعتْني. لم تشـأ أن أرافقها، رغم أنّها تعرف أني قوي وقادر على القنص. كنتُ أُفكر وأنـا أمشي. إذ وصلت إلى آخر بيوت القرية، رأيتُ، بعيـداً، رجـالاً يرتـدون البياض، وبدأتُ أجري. سقطتُ مرّات عديدة، وكانت يـداي وركبتـاي ينزفن. كان الرجال يقومون بحركات لا تنتهي...

لم يعد يأكل شيئاً. منذ نهارين وليلتين، وهو يتقيّأ كلّ ما يُقدَّم لـه. كما أنه لا ينام. إنه يختضّ باستمرار. يجب استقدام الطبيب مجدداً، قالت الأمّ. الرجل يُحرك يده للحظة أمام وجهه، مثلما لطـرد ذبابـة، ويحكّ ذقنه وعنقه...

استلقيتُ خلف كومة أحجار مستطيلة. على قمة نخلة، كانت غربان تنعـق. كـان شـيء كالتنمـل يتصـاعد في سـاقيّ، وكنتُ أدعكهمـا باستمرار.

كان الرجال قد جلسوا، بعضهم خلف بعض. كانوا يتلون سُـوَراً. بـدا لي أنّي أسمع كلمات تعلمتهـا في الجـامع. كـانت أصـواتهم تثقب السماء ثم تهوي لتنتشـر على الحصـباء. لم يكن بإمكـاني أن أحلم في تلك اللحظـة، لكنّي تخيّلت أني قـادر على شـقّ طـريقي بينهم والمرور دون أن يَلحظني أحد. في الجهة الأخـرى، كـان رجـل يحفـر الأرض. وكان آخر يقتطع فروع سِدرة ويَركمها. كنتُ متحرّقاً للالتحاق بهما، لكنّ شيئاً ما كان يُوقِفني وظلالاً هلاميّـة تنبثـق إثـر كـلّ من محاولاتي.

فجأة، فجوة مُظَلَّلة! فجوة مظلمة عميقة، حواليها في كـلّ مكـان ضوء عارم. ربّما هي المسلك الجيّد. الطفل يرغب في المضيّ عبـر تلك الفجوة. لكنْ ما إن يُحاول الوقوف على قدميه حتى يسقط من جديد ويتـأذّى. من هـذه الفجـوة القريبـة جِـدّاً تهبّ عليـه بـرودة وتنساب، طيّبةَ الملمس، على جسده، فيما تطبع كتلة الضـوء على جبينه دوائرَ ساخنة تغزو تموّجاتُها رأسَـه وتـترك أثرَهـا في نفسـه.

يعنّ له أنه قد يجدر به الانغمار في الفجوة عن طريق التحرك دونما توقف. وسيكفّ هذا الضوء عن ملاحقته. لكنّ هذا المسلك القـريب جدّاً والهادئ فعلاً، ألا يمكن أن يـؤدّي إلى السّـكينة التّامّـ ة؟ إذا مـا اتَّبعه، فهو لن يبقى بعدُ أسيرَ جسـده الأليم اللصـيق بـه، ولا أسـيرَ هذه الأرض الباردة والثقيلة التي تخنقه ولا تنتظـر إلا السـاعة الـتي تنغلق فيها من فوقه لتسحقه.

وقف شيخ مسن وقصير. أشار إلى الرجل الذي يحفر بأن يتوقّف، ثم وقف الآخرون جميعاً. لم أكن أدري ما الذي يقومون به، وكـان ذلـك يُبلبلني. هل وقع أمرٌ مُرَوّع؟ لماذا كلُّ هؤلاء الرّجال؟ وهذا الشـيخ، من هو؟ وبقدر ما كانت تسـاؤلاتي تتزايـد، كـان الخـوف يتملكـني. الخوف، كلا، إنه شيء آخر. كنتُ قد أصبحت شبه أخرس وشبه فاقـد للقدرة على الحركة... مثل واحـــد من تلك الأحجار الطويلة. فجأة، تذكَّرتُ خالتي. في قلبي، سرى برق قاطع. دمٌ محـروق... وفي تلـك اللحظة، قفزتُ من مَلجئي. جريتُ حتى وصلت إلى الشيخ القصـير. لقد كان الفقيه هو ذلك الشيخ! وقد صرخت وهرعت نحـو الحفـرة التي كانت قد مُلئَـتْ بالتراب.

أمسكني رجل من ذراعي وخضّني بقوّة إلى حدّ أنّ عيـنيّ اغرورقتـا

بالدّموع. البعض سألوني عمّن أكـون، لكنّي لم أُرد أن أقـول شـيئاً، فبادر آخرون إلى الجهر باسـمي. لحْظَتهـا صـرختُ بأنـه لم يكن لي سوى أمّي وأني لا أذكر أنه كان لي أب. احمرت وجوههم وهمهمـوا. كان هذا كافيا ليقول الفقيه إني مجنون وأني أستحقّ الضّـرب. كـان يكذب! لقد كنتُ دائمـاً أستشـعر ذعـراً من المجـانين. اسـتجمعتُ نفسي بتشنّج ثم أطلقتُ العنان لجسدي بسرعة مثلما يفعـل قِـطٌّ قبل أن يقفز، وفي ذهني أن أقتلع عنه جلابيته النظيفـة جِـدّاً. وقـد أوقفني الرجل في اللحظة الملائمة. الجميع بصـقوا في وجهي مـا عدا الرجل الذي كان يُمسكني، فقد صـفعني وألقى بي على الأرض. سأعرف فيما بعد أنّه كان قد دخـل السـجن مـرات عديـدة، لسـوء معاملته لبني جِلدته، وأنّ أناس قريتنا كانوا، في وقتٍ ما، يتفادونـه مثلما شرّ مستطير. إذن، فإثر مغادرتي لِمَخبئي، عُدْتُ إلـى البيت باكياً. ثم يتكرّر الأمر! فهـل أعلمـوهم. لقـد دعكتْ أمّي أذنَيّ. وكـلّ الفتيات الصغيرات قهقهن. أشبعتُ ضرباً واحدةً منهنّ أو اثنـتين، لا أذكر بالضبط، ثم ركضتُ لأختبئ في الإسطبل. كـانت بـه نتانـة، لكنْ أمانٌ أيضاً. قدماي كانتا تسوخان في الروث المتحلل. مثلمـا كانتـا قد ساختا مرّة في الوحل، فيما أتذكر، بعـد أنْ بـدأ السـيل يـتراجع قليلاً (في ذلـك اليـوم، كـان قـد جـرف يتيمـاً، تمّ إنقـاذه بعـد أن

استنجدت أمه بالنّاس)... لحست البقرة يديّ وقـد داعبتْ عجيزتهـا، وتحديداً ذلك الطرف من اللحم الورديّ والأبيض، تحت ذيلها الـــذي كساه روث جافّ. كـان ثمـة تحـرّك، أي خفقـان... مـاذا كـان ذلـك؟ فاشتهاءات من هذا القبيـل كنتُ قـد عرفتهـا هنـا وهنـاك: كـانت بمثابة لعب آسِر، حيثُ يكون هنالك موت، فيمـا يبـدو، للواحـد في الآخر، دونما فناء فِعليّ، ما دام الجسد هو سبب كلّ ذلك. وكما هي الأشياء الأخرى، كما هي حياة الناس، لم يكن الأمر جدياً تمامـاً، لكنْ كان هنالك ذلك الماء الذي يملأ فمي، وكنتُ أبتلعـه لكنـه، في كـلّ مرّة، يصعد من جديد. ففي كثير من الأحيـان، كـان يحـدث أني حين أنشغل بشيء، يظهر شيء آخر ويَدهمني، يُقلق راحـتي حقيقـة. لم يكن لديّ قطّ ترابط في الأفكار، بحسب التعبير المتداول، لكنّ الأمـر مختلف في هذه الحال، فما دهمني جاء من الخارج. وهكـذا، فحين كنتُ أَجسّ للبقرة «حبة فاكهتها الجميلة» - كان سَـلَفي يسـتعمل هذا التعبير، ولم أكن أستطيع التحكّم في نفسـي حين يتلفّـظ بـه- عدتُ إلى الوراء بحركة سريعة، حاسباً أنّ أحـداً مـا تخفّى في مكـان قصيّ بالإسطبل، ملفوفاً بالسَّـواد؛ وبالفعـل، كنتُ أسـمع من حين لآخر أصواتاً خافتة: تنفُّساً، شخصاً ما ينخر بشكل بيّن؛ حقّاً، كان هذا قد وقع من قبل في حلم، وكان لديَّ جدّي؛ كنتُ قد اجتزتُ حـاجِزاً،

وحتّى كشكاً خشبيّاً كنتُ في العادة ألعبُ فيـه مـع رفيـق؛ لكن، في هذه المرّة، لم يكن الأمر يتعلّق بحلم، فقد كنتُ هنالـك، محبوسـاً في زاوية، والبقرة تجترّ هانئةً. كنتُ أشعر، أكثر فـأكثر، بـأني أغـوص وتلتف حولي شبكة هائلـة في جـانبٍ من غَمْـ ـر مـائيٍّ؛ كنت أصـرخ طالبـاً النّجـدة؛ لم يكن يَسـمع صـوتي سـواي؛ وكنت أُرَجّ بصـورة شديدة الإيلام وأشـعر أنّي أتقطّ ع. لـذتُ بالصّـمت كمن يبحث عن مَنفذ يفرّ منه، كالفـأر الْمُحاصَـر، الجـريح، الـذي يكـفُّ لِلحظـةٍ عن الأنين. دقـائق الصـمت تلـك كـانت بلا جـدوى، ولكن ليس كُلّيـةً؛ فالتعطّف على الذّات لا يعني شـيئاً؛ يجب أن يَشـعر المـرء بنفسِـه يُسْحَج، تُبْذَر قِطَعُه في كلِّ مكان، وهو كبير في حجم العالَم، هذا ما كنتُ أحبّ؛ نعم، لكنّ ذلك لم يكن يدوم طويلاً؛ فشخصي كلّـه كـان يمضي مسـافراً في الـروث المتحلّـل، في الـرّوائح، في الهمسـات وأيادي العدو المتربّص بي والتي تتكـاثر فجـأةً وتحيـط بي من كـلّ الجهات؛ وباستثناء ذلك الضّرب من الحفيـف وخبطـة الجنـاح تلـك اللذين كانا أحياناً يَبهران عينيّ، فلا شيء آخر كان قـد أصـابني حتّى الآن. كنتُ أشعر بألم في الوجه خاصة، وتحديـداً في العيـنين. هـذه الصورة القبيحة التي كنت أراها كمـا في مـرآة تقريبـاً كـانت تُفقِـد خدَّيَّ أيّ لون ينمّ عن حياة؛ كانا يُشبِهان قطعـتي دلّاع متعفّنـتين أوْ

كومتي بِراز مرّ عليهما أسبوع: كان ذلك بين صـخرتين، حيث يوجـد معبر شبيه بالردهة، وَعْر في طرفه الآخر؛ كان ينبغي الصعود، وكـان المسار يؤدّي إلى الجبل؛ كان المعـبر مـأهولاً بالـذّباب، وكثـيرا مـا تكون فيه ضفادع، بعـد هطـول المطـر؛ وكـان يعجّ بديـدان بيضـاء وسمينة، لها أطراف مُدبّبة، تتلـوّى حين يحـرّك الأطفـال كوماتهـا؛ وكانوا يدفعونها إلى تحت الشمس ليشاهدوها وهي تحتضـر: كـان ذلك مسـلياً... كـانت هنالـك حشـرات متنـافرة الأشـكال تطنّ في الظلمة؛ كانت تلتصق بجلدي فأطردها، وأحياناً أخفي رأسـي بيـديّ. مع هذا، فالصراع لم يكن لينتهي بالسرعة التي كنت أتوقعها؛ ربّمـا يكون هذا بسبب ذلك الشخص، قلت لنفسي وقتئـذ؛ على أي حـال، فلم يكن من ذلك مناص، كان في الأمر ما هو مُبَيَّت. كان يرسل إليّ زوبعته الميكروبيّة في رشقات متوالية، ليقبض عليّ بسـهولة أكـبر ولا شكّ...

كان الطفل منغمساً في بِركة موحلة حيثُ الشـمس لم تعـد كمـا عُهِدتْ. جسمه شديد الاحترار. السـماء المتشـققة كـانت تتسـاقط صفائح ثقيلة متباينة الحجوم. هنالـك تجـاويف تحت المـاء. تبـدو كأنها هُيِّئتْ من قِبَل سـلطعونات أو حيوانـات برمائيـة ذات أنيـاب

قوية. الجبال التي كانت هنا فقدت من ارتفاعها حدَّ أنه لم يبق منها سوى صخور مشرئبّة. قاع البركة يبدو ككوكبة نجوم متحركة، من فحمٍ صُلب. منظوراً إليه بهذه الصورة، كان يبدو عالَماً باعثاً على الدّوار. لا يزال لدى الطفل ذلك الإحساس بالوحدة، لكنّه لم يَعد يتألّم فِعلاً؛ جسده كله حَرْق؛ هو لا يشعر به، ليس بالمنغرس فيه. جلده في نفس قساوة درع السلحفاة. ثم يتوقف، يتشبث بأيما حاجز، بحجر في شكل طوق أو بفرع شجرة يَظهر صدفةً؛ ويُعيد تأمل أطرافه للحظات طويلة بعض الشيء قبل أن يهوي من جديد حين يسقط الحجر أو الفرع تحت تأثير وزنه هو، الذي كان ثقيلاً فعلاً...

أخيراً خَرج! كان في كلّ مكان ولم أكن أراه. لم يكن يتركني أتحرّك. كنتُ حقّاً قد رأيتُ الباب المُشَقَّق. أشعّة ضوء النهار كانت تخترقه. وكانت تختفي أحياناً، فلم تكن تبقى لأكثر من ثانية. كنتُ أتخيّل شخصاً ما خلف الباب؛ ممكن أن تكون في ذلك نجاتي، لكنّي لم أكن أستطيع حتى أن أصيح، ولا أن أشرع في حركة. فكما لو أنّي كنتُ محبوساً بداخل ضبابة تصلّبتْ. نعم، كنتُ أسمع وأُمَيّز أصوات الأطفال والنساء. كانوا يبحثون عن واحدٍ ما. بلا كلل. عنّي أنا، بالتّأكيد. كان ذلك يضغط على قلبي، وعلى معدتي وشفتيّ. لقد

انتهى أمري؛ ومع ذلك كنت أتمكن من القيام بقفزات. في لحظة ما، قلتُ لنفسي إن مقاومتي كانت بلا جدوى وأنّ الأَوْلَى أن أذعن ويُقبَض عليّ. كنتُ متسمِّراً لا أتململ، تماماً مثل غريمي. ولهذا ولا شكّ انقشعَ مُتقَطِّعاً؛ لقد رأيته جيّداً، وكان شبيهاً في كلّ شيء بِشعلة طائرة. بعد ذلك بزمن، حين حكيتُ لأمّي ماذا وقع يوم دفن خالتي، منعتني من الخروج. بالطبع، فأنا لم أُطِعْها؛ كان ينبغي أن أقول للجميع، وخاصّة لأولئك الصبية الذين كانوا يحسبون أنفسَهم أقوى منّي، إني بطل. للأسف، لم أستطع ذلك. وبسبب هذا، مرضت.

أخذتني أمي إلى معالِجةٍ عجوز كانت تسكن قرية أخرى. إذا كنت أتذكّر جيداً، فقد مشينا طيلة صبيحة بأكملها؛ لقد أخطأنا الطّريق. هكذا اكتشفتُ الجبل. لقد تمّ ما فكّرت فيه سابقاً، بأني سأمضي في يوم ما إلى أمكنة بعيدة عن بيتنا، وأمرّ بين صخور هائلة، وأنّ أشجاراً شائكة ستكون هنالك، ونباتاتٍ لا تخضرّ إلّا في الصّيف، وأني سأسمع صيحات غريبة تندّ فيما يبدو عن حيوانات متحصنة في مساكنها. رأيتُ ابنَ آوى؛ ونظر إليّ؛ أثناء جرْيه، كان يلتفت، يتوقّف أحياناً، يكفُّ عن الحركة، ثمّ يُطلق العنان لساقيه من جديد؛ وكانت هنالك حراذينُ متعدّدة الألوان، وجلودُ أفاع شفافة ورقيقة؛ كان

يقال إنها تصلح لعلاج بعض الأمراض؛ وكثيراً ما حككتُها على بطـني وجذعي. وقد أطلعتني أمي، أثناء سيرنا، على المكان الذي كان أحـد اللصوص، قبل سنوات خَلتْ، قد سلب فيه امرأةً شابّةً ما كان عليها من حِلِيّ. اسـتنكرتُ ذلـك حـدّ الارتجـاف. كنتُ أعـرف أنّي ضـعيف؛ الجميع كانوا يقولون لي ذلك، كان هذا مأخـذاً حقيقيّـاً عليّ؛ وكنتُ أعتبره نقصاً قد أكونُ أنا مُسَبّب وجوده. ومع هـذا، كنتُ أتغلّب على كل الأطفال؛ كنتُ الْمُخيفَ في القرية. في صبيحة شتاءٍ ما، وكان قد تمَّ ذبحُ عِجلين (نسـيتُ أيّ عيـد كـان ذاك)، كنتُ أتسـلّى بإحـدى المثانتين اللتين رماهما الجزارون، وإذا بِابْنِ أحـد هـؤلاء الأخـيرين يتقدّم نحوي، مُهَدِّداً. استمررتُ في نفخ المثانـة، لكنـه لم يشـأ أن ينصرف. شَكَّل الصِّبية، شيئاً فشـيئاً، حلقـةً من حولنـا؛ كـانوا كلهم يستفزونني في آن واحد، ويقولون لي رافعين أصواتهم بـأني عـاجز أمام ابن الجزار لأنه يأكل لحمـاً أكـثر منّي، وأني لن أجـرؤ أبـداً على معاكسته. مع هذا، كنتُ واثقاً من أني سأطرحه أرضاً... شيء ما كان يوقفني... بلا جدوى! فقد أمسـكت برقبتـه، وأسـقطته، ثمّ جلسـت فوقه. كان تحت رحمتي. كنتُ شديد الاهتياج، وكان الشعور بالإذلال يحتدم في داخلي، حَدَّ أني لم أتوقّف عن توجيه الضربات إلى وجهه. وسال الدَّم من خدّيه وشفتيه. كان الصبية يهللون من السرور. وما

إن شعرتُ ببعض التَّعب حتّى قفزتُ منتصباً على قدميّ، الأمر الـذي أذهل الجميع، وبدفعات عديدة للواقفين أمكنني أن أنطلـق هاربـاً في اتجاه البيت. كنتُ قد نسيتُ المثانة كلّية.

ولحق بي الجزار في اللحظة التي كنتُ أدفع خلالها البـاب. أشـبعني ضرباً ودفعني، بازدراء، لأرتطم بجدار. لم أتمكن من البكاء إلّا بعد أن دخلت إلى الـبيت. حينهـا أطلقتُ العنـان لـدموعي. أَشْـربتني أمي قدحاً من لبن وبدأتْ تُواسيني. بـل إنهـا وعـدتني بـأن تـذهب إلى زوجة جلّادي للجهر بغضـبها. قـالت لي بأنّـه من الظُّلم أن يتـدخّل الكبار في مشاجرات الأطفـال. وفيمـا كنتُ أُصَعِّد الزّفـرات، كـانت تكلّم نفسها ذاهبـة آيبـة. من حين لآخـر، كـانت تـأتي وتمسـح لي وجهي. كنتُ بريئاً. بالتأكيد كنت كذلك. كانت مشاعر غريبة تتشـكل في داخلي. شيء ما كان يتحرّك في قلبي. شرعتُ مجدّداً في البكاء. في هذه المرة، كنت أنشج. لحظتها أخذتني أمي بين ذراعيها وقالت إن وزني ثقيل لتنسيَتني الواقعة. تلك كانت طريقتَها لتجعلـني أدرك أنَّني لم أكن وحيـداً، أنهـا لن تتخلى عنّي أبـداً، مهمـا يقـع. ففيمـا مضى، كنتُ أطالبها بأن تُبديَ تجاهي كلّ عاطفتها. قُبَيل مجيء أخي الأصغر إلى العالَم، لزم أن تُوقِف عنّي حليبهـا. بالمقابـل، منحتـني

الأغذية العاديـة الـتي كنتُ قـد بـدأتُ آلَفُهـا، نوعـاً مـا. لكنّي كنتُ أرفضها؛ فقد كنت شـديد الارتبـاط بثـدييها. تصـوّروا أني في سـنّ الخامسة كنتُ ما أزال أرضع منهما. لكنْ لم يكنْ ممكنـاً أن يسـتمرَّ ذلك. اجتمعتْ وقتذاك كلّ العائلة ومعها إحـدى الجـارات للتـداول في الأمر. وقد بذلوا جهدهم لإقناعي بـأني كنت قـد أصـبحت طفلاً كبيراً وأنه كان لازماً تماماً أن أتخلّى عن العـادات الـتي لا تليـق بي. وقد فشلوا. لقد أقسمتُ بألّا آكل شيئاً. وتصرفتْ أمـي بعطف. فتمّ لومها على ذلك بشـدّة. لـزم وقت طويـل لتجعلـني أمقت حليبهـا وأَقبـلُ أكلات شـهية، كالكسـكس بالسـمن الحِرّيـف واللحم. وقـد تمكنَتْ مني هذه العادة بدورها، حدَّ أنّي لم أعـد أرغب بمـا سـوى اللحم؛ وكانت إحدى الخالات تجلبه لي كلما كـان هنالـك حفـل في القرية؛ وأصبحتُ جشعاً، أنانيّاً، ومستبداً برأيي.

لستُ مصاباً بشيء يا أمّي، قال وهو يـدعك جفونـه. هَمْمْمْ، مـاذا وقع؟ أين أنا؟ يبدو أنه ليس هو الـذي يتكلم. أمـر مسـتغرَب، يفكّـر الشيخ. لقد بدأ يتكلم من جديد. الْمرأة الشابة تُخفي وجههـا. إنهم سكنوني، قالت. بعدها، لم تقـل شـيئاً. إنهـا تجـذب شَـعرها، تفتح فمها على سعته، تصرخ ومع ذلـك لا يُسـمَع لهـا صـوت. ثم تقفـز وتنتصب، تقـوم ببضـع خطى، ثم تهـوي بكامـل جسـدها، ذراعاهـا

منفرجتان، وكذلك ساقاها، وشـريط من اللعـاب ينـدلق من زاويـة شفتيها. هيّا، قِفي، صاح الشيخ بوجه الأخرى، امضِـي واجلـبي مـاءً وبصلات. آه! يالَه من بيت غريب! الـذين هم أكـبر سِـنّاً لم يعـودوا يستطيعون حتى السيطرة على أنفسهم. بقيت الأخـرى مشـدوهة. إنه الشيخ الذي مضى للبحث عن الماء والبصـل. حين عـاد، انحـنى على المرأة الشابة، وفتح لها فمها، صبّ فيـه مـاءً فلفظتْـه. أخـرج سكيناً صغيراً، قسَّم بصلة إلى أربع، تناول أصغر القطع وبدأ يحكّ به وجنتي المرأة. إنه يغمغم، باديَ الغضب... قفي، تعالي لمسـاعدتي! العجوز لا تتحرك. تجلس المرأة فوق كرسي، والطفـل بين ذراعيهـا؛ تبدو مسحورة بالمشهد. يصفع الشيخ المرأة الشابة ثلاث مرات. لا شيء يمكن فعله! إنها تشخُر وتَريل. إنّي أضيع وقتي، هذا كلّ شيء، يفكّـر هـو؛ ثم ينهض، يبقى بلا حـراك للحظـة، ثم يُغـادر المكـان؛ يمضي إلى غرفة أخرى، يرتمي على سـرير غـير مـرتّب ويشـرع في ضحك هازئ... هكذا هو الأمر... كانت الأغاني والرقصـات قـد انتهت حين فقدتْ وعيَها. تَمَّ نقلُها على الفـور إلى بيتهـا. تَمّ جلبُ فقيـه؛ قضى الليلة بأكملها قرب رأسها؛ في فجر اليوم الموالي، اسـتعادت وعيها. عدوّ الروح الشّرير هو العقل؛ العقل الضعيف يخترعه والعقل القويّ يُدَمِّره... ينهض، مسروراً، يعود إلى الغرفة الأخرى، يتنحنح ثم

يبدأ في قراءة سورة بصـوت مرتفـع. في الـوقت نفسـه، يـرى من جديد تلك المرأة الشابة في خياله. ماذا تفعل، تقول الأم؟ الشـيخ لا يجيب. المرأة الشابة تئن، تستدير بجسدها، قبضـتاها مشـدودتان. ما عاد وجهها يُرى؛ هي تبكي الآن مثلما طفلة...

III- صفحات من رواية "جِسم سالب".

صدرتْ "جسم سالب" بالفرنسية، سنة 1968، ضمن كتاب يضمّ روايتين قصيرتين *

Corps négatif *suivi de Histoire d'un Bon Dieu*

(Seuil, 1968)

يَـدفعُونك بقــوّة، يأمرونــك بالــدّخول، وفي النّهايــة، يُحــاولون استمالَتك، بل وحتّى حملَـك على الاعتقـاد بأنّـك في بيتِـك، لكنّهم يُصيبونك فيما بين الضُّـلوع بِمـا يلفظـون من كلمـات فتبـدأ في البحث عن الخيط الذي تَظُنّ للحظة أنّه يربطُ بينــك وبين *شــيء ما*؛ غير أنّك لا تعثُرُ على أيّ خيط وبالكاد رُبّما تســتذكرُ شــارعاً أو وجهــاً يَبْقى، في نهاية المطاف، مجهولاً من قِبلك كلية؛ بالكاد قد تستذكرُ ذاتك بعضَ الشّيء. إنّهَا لحَالٌ تطول، حالٌ مُنْهِكة، مُخيفة. فكمـا لـو أنّهم حبسوك في دهليز أسْفلَ العـالمِ الـذي عِشْـتَ فيـه وأحبَبْت، والذي لا يتبقّى منه شيء بمُجرّد أن يُغـادروك. لا شـيء. الشّـارع: لا يتعلّقُ الأمر بشارع عاديّ، بأكشاكـــه ومحالّـه حيْثُ تبـاعُ الملابِس النّسائية أو الموادّ الغذائية، بمارّتِهِ المُتعجّلين الذين يُخفون بكامل الحرْص خلف ملامحهم، وبِكلّ ما هم عليه من وقار، لحظاتٍ أخـرى، يُقَلّبونها مازجين موادَّ حيّة هم وحدهُم المُتحكّمون في ديمومتها. الشّارع، أعني ذلك الذي عِشْتُ فيه، لا يُشْبِه باقي شـوارع المدينـة. لقد بدا لي فارغاً دوماً، ومن دون أهمّية، ولم أفكر قـطّ في مصـائر ساكنيه. رغـم هذا، ففيه عِشْـــت. أذكرُ قريبـاً وأصدقـــاءَ، وشَخْصاً

ماعدتُ أستطيعُ استحضار تقاطيع جسده أو ميولاته أو سِيماهُ، لكنّ أبسط ما يتعلّقُ بـه يبقى قـادِراً على بَعثِ وخـزة حارقـة في قلـبي، كأنّها لسعة زنبور.

لا شَكّ أنّها كـانت امـرأة. كنتُ قـد نِمتُ طـول الليـل. ذلـك كـان تمهيداً للهرب، إن لم يكن الهربَ نفسَه. لكنّ مُواكبة النّاسِ لي على امتداد مساري كانتْ تُضايِقني. *فَما كنتُ بَعْدُ أنتمي إليهمْ.*

الشّارع. الهواء. السُّحُب السّوداء الكبيرة. وهذه الأرض التي يُحِبّها المرء وتُعَذِّبُه.

كان ثمّة شيءٌ ما في صدري. فأرٌ، ربّما. فيـهِ كنتُ، بمـرور الـزّمن، أتكاثَف. لمْ أكنْ أعلم ما الذي كنتُه ولا ما كنتُ عليه في البدء. هنا أو في أيّ صَقع، ما من وجود لمكان مُحَدّد المعالم بالنّسبةِ إليّ. ثمّة، مع هذا، أناس يتمكّنون، في النّهاية، من أن يعرفوا، فهـم يباشِرون تحقيقات حول أنفسهم، والواحِدُ منهم يُسَمّى شجرة أو ذبابة، كلباً أو حِرذوناً، لكنْ ليس حجـراً أو صلصـالاً أو حجـراً مُتبلِّراً. هـؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا يتبعونني، والأرض بمـا عليهـا كـانتْ تتبعُـني،

مُنتصبةَ الأشواك، ذاتَ صرير، صـفراءَ، زرقـاءَ، خضـراء، رماديـةً، مـا أدراني! كلُّ الأرض كـانتْ تجتـاحُني، موجـةً ترفعُـك إليهـا دوّامـات منبجسة من زوابع بحريّة، وسـماءٌ تُبـدي لـك من الشـمس طرَفـاً فتَعْمدُ، أنتَ، في الأخير، إلى التّمسُّك به.

ذاك كانَ يوماً ماطِراً طبعاً.

كان المطر قد اختفى وكبُرَتْ عُجَر الموت التي خلّفهـا في نباتـات السُّعادَى ذات الجذور المُتوحِّلة وفي أخرى غيرِها ليس لها أسمـاء ولا أنساغ. وها هو يعود وقـد اشـتدّ فيُعَنِّفُ في دمي هـذي الحيـاة التي أتحمَّلُهـا بصُـعوبة ولا أتقبّلهـا إلاّ بـدافعٍ من مخـاوفي، يعـود بِزَخّاته المُتقطّعة الشبيهة بهجمات ريح مِعْجاج على زجـاج نافـذة. مطـرٌ حقيقي تعثُـرُ فيـه العين مُجَـدّداً على الامتـدادات المائيـة الشّاسِعة. كانتْ المائدة جاهزةً. كانوا ينتظرون شخصاً ما.

- أرِني هذا، قال.

إنّهُ ألبومٌ قديمٌ، ما أكثرَ ما اقـتربتْ منّي، من بين دفّتيـه، وحـوشٌ بِخراطيمَ، وضفدعِـيَّاتٌ لبدَتْ في جنبـاتِ مسـتنقعاتٍ تُخيّمُ عليهـا الكآبة، متربّصةً بحشراتٍ تلوكُ أحلامها، وأعشـابٌ يابسـةٌ منتظمـة في خطوط متقطّعة وسط أشـجارٍ شـائكة تنبعثُ من بين تلافيفِهـا أصواتٌ متنافرة. كُنْتُ أُغذّي الوهم بأنّني أحيا في تلك الأصـقاع. يـا لَلْعملية الموفّقة. هكذا، لم يعد ثمّة ما أَقلـق من أجلـه. فلتـذْهب بقية العالم إلى الجحيم! وها إنّي الآن أستشعرُ أمـرين غريـبين في الآن نفسِه.

- لن ترى شيئا، أجَبْت.

ما الذي كُنْتُ آمله، إذن؟ ما الذي كنتُ أريد أن أبحث عنه في هذه الصّفحات ليكون لي سنداً فعلياً؟ لقد لعبتُ ورقـتي الأخـيرة. كـانتْ هي قدْ رحلتْ. والغريق لا يُخرَجُ من الماء إلا ليُهيّأ له قبرٌ لائق. لا. إنّ كلّ شيء في طور الاستهلال. الغريـق ينهض على قدميـه، يـدفعُك يمنة ويسرة؛ ولا تستطيـــعُ إزاء هذا شيئا. ويالِلمُصيبـــة إذا سَـدَّ حنجرتك أو قصبة رئتك. أو إذا اختار الإقامة في ذاكرتك. لم يكن قـد تبقّى لي سوى صفحاتِ أيّام الطُّفولة تلك: منحتُهـا لنفسـي، نقطـةً

جيدة... وكنتُ ألحظُ ذاتي وأنا ألهث، صـريعَ لـذّة رهيبـة. كـانتْ قـدْ ماتتْ، لكنّها كانت تمرُّ مُجدّدا مُعَرّجة على الأحجار من دون مشكل. وعلى الصّفحات، تحت الحـبر، لم يكُنْ ثمّ ة الـورق، بـل كـانتْ هي. قسماتُها كانتْ تحت المَدَر تفْضَحُ جريمة ما غير مُحدّدة. إنها كـانتْ تتنفَّس. وذهبتْ قراراتي أدراج الرّياح! لقد اعتقدْتُ حقّاً أنّي، بشـكل مفاجئ، لحظتُ استنشاقَها الهواء. أيتعلَّقُ الأمر بصـرير عـاديّ؟ أمـرٌ يبعثُ على الضِّيق! تصوّروا شارِعاً شبيهاً بالذي عشـتُ فيـه، أُناسـاً يُعاملون المرء بازدراء، لا يُحيطون عينيـه بالرّعايـة. تخيّلـوا هطـولَ ذلك المطر الأوّل، وإذ تبلغون النهاية القصوى لتصوُّراتكم، لاحظـوا كيـفَ يقـومُ الشّـتاء والـبرْد، عـامِلا التّنظيفـات النّشـيطان، بكَنس القمامة المُتعفّنـة، وكيـف يَـدفعان المـرء إلى الخلـف بلا هـوادة، مُعيدَيْن إياهُ إلى داخل ذاتِه، إلى ذلك الظّلام الذي اعتاد فيه ارتطـامَ رأسِه بما لا يراه...

كانت مياه المطر مُستمرّة في التساقط بكميات كبيرة. من الأغوار تتناهى ضَجّة خافتة. تكفي صَرْخة لأُنْقَذَ أنا أيضا. صرخة فحسب. في المطبخ، كانتْ زوجة الأب تُدندن؛ وطِفلُها يضـحك دون أن يكـفّ عن تنشُّق أبخرة الطّعام. كنتُ قد وصلتُ، تقريبـاً، إلى منتهى مُعانـاتي.

وكان ما حصّلتُ من نتائج في غيرِ صالِحي. وكلّ شيء اكتسى بِحالِكِ السّواد. كانتْ قد جاءتْ لوضع حدّ لما كان. ثُمَّ اختفتْ إثرَ ذلـك على الفور. إنّ الشّقاء يَصْحَبُ الحظّ الطّيب. في اتّحادِهِما يَظهرانِ بنفسِ الوجه. وفي ذلك ما يبهر، فإمّا أن يُبْدي المرء الرّضا أو يَنـذُرَ نفسَـه للهلاك. ودونما تحفّظ عبّرتُ عن رضاي، وقلْتُ في نفسـي إنّ الحـظّ قد ابتسم لي في هذه المرّة. فتميمتي كانتْ هي. وعيناها، كمْ هما عميقتان. لم أرَ ما يُشْبِههما عنـد امـرأة أخـرى. وكـان يَجبُ الهَـدْم ليتسنى البدء من جديد. لقد لزمَ، في النّهاية، تدميرُ كلّ شيء، بمـا في ذلك الرّصيف. هي ذي الحياة وهؤلاء النّاس الذين يحتكّـون بـك بدافعٍ يكاد يكون هو الشّفقة على النفس. خاصّة الأقربون. لقد تغير اتجـاه الـريح، فجـأة. وهـا هي واقفـةٌ خلفي لا تـريم. في صـلابة الحيطان. ما الجدوى! إنّ المطر يغسِل كلَّ شيء، ويَنفثُ في المرء حياةً أُخرى، جديدةً هذه المرَّة.

نخرجُ مُتعانِقَين، فرِحَين. نُغلقُ الباب بعنف؛ أو نتركه مفتوحا، أليسَ هذا أكثرَ بساطة؟ إنّ الكلاب تتبوّلُ عليه، بل هي تجوبُ البيتَ نفسَهُ مستكشفةً حتّى الخفيَّ من زوايـاه. لم تعُـد هنالـك سـوى يافِطـة بِأعلى إطارِ الباب: *بيتٌ مفتوح*. يافطة، أو لا شـيء على الإطلاق. لكنّ البابَ يبقى مفتوحاً، أُنَبّهكم إلى ذلك؛ ونحنُ نمضي لأنّنا راضيان عنْ

نفسينا وما عاد لأحـد الحـقّ في أن يؤاخـذنا على شـيء. كنَّا نكيـلُ الشّـتائم للـذين يَمُـرّون قُربنـا، دون أنْ نتوقّـفَ حتّى، ودون أدنى تفسير. نبتعد، نسـتوقفُ تاكسـياً، ونطلـعُ إليـه. اِمْضِ بنـا إلى حيثُ تشاء. يَحتجّ السّائق، لكنّه يستجيب وينطلق. ويَهوي الواحِدُ منـا في الآخر، في نظرة الآخر التي تُصبحُ، فجأة، في رحابة الغابات.

أزِف وقتُ الغداء. يَلزمُ قرعُ جرسٍ ليحْضُرَ الجميع. تغييرُ المواقيت لا يُجدي، فثمّة دائماً واحد يتخلّف. واحِد تأخر. لعناتٌ تُكـال بصـوتٍ جَهْوريّ. يَتِمّ البحثُ في كُلّ الغرف، تُشالُ المَرْتبة. كثيرا ما يَحدثُ أن أتخفّى تحت السّرير بعْد معركة ما، والرّكلة التي تلقّيْتُها على القفـا تشهدُ على ذلك...

—

-IV-

صفحات من رواية

رائحة شحم معتّق*

Une Odeur de Mantèque

* في بعض القرى المغربية، في الماضي بشكل خاصّ، كان من المألوف تمليحُ الشحم وتعريضه لِحَرّ الشّمس لفترة، ثُمّ إيداعُه وعاءً طينيّاً، وتركه يَتعتّق فيه. بعدها، يُستعمل في المطبخ كبديل للزيت. وهذه الطريقة في الطبخ وُجِدتْ أيضاً في الجنوب المغربي، حيثُ وُلِد م. خير الدّين وترعرع.

«لنجلسْ، قال، لنجلس وَلْنَرَ جيدا! أيتها المِرآة، استمعي إليّ، تكرّمي على الأقل بأنْ تُعيري أذناً صاغية لهذا الوغد الذي هـو أنـا. أتـدرين كيف حصلتُ عليـك؟ لا! مـا عُـدتِ تتـذكّرين ذلـك. غـيرُ مهمّ. لقـد سرقتكِ قبل خمسين سنة من بائع جـوّال، كـان يُعلّـق على ظهـره سلّة كبيرة تحتوي أشياء من كل صنف: بهـارات، كُحـل، بيض نعـام، حَرابيّ مُنشّفة، تمائم، ولُعب أطفال. وأشياء أخرى كثـيرة نسـيتها.» عَكستْ له المرآة طيفاً بعيداً، غريباً نوعاً ما. «آه! نعم، هذا مـا كـان فعلاً. كان يبيع أيضاً أقلاماً من قصب، عقـودَ مرجـان وكـلَّ أصـناف البخور، بما فيها أحجار كـانت تُحـرَق في المجـامر لطـرد الجنّ.» إذْ نطق بهذه الكلمة الأخيرة، نطّت المـرآة من يـده، وسـقطت أرضـاً، لكنَّها لم تنكسر. اهتزّ الشيخ وآلَمَ حَقويه، ونظر إلى المـرآة قبـل أن يلتقطها، ثمّ قال: «حقّاً، تَبْدين كالمسكونة! هل رأى أحد قـط مـرآة مسكونة؟ أبداً! أبداً! إلا إذا كنتِ... ما دمتُ سرقتُك... لا ترغـبين بعـدُ في البقاء معي؟». وبدأ في البكاء. بـل كـان ينشـج أيضـاً، للحظـات طويلة. كانت قرويات عابرات يختلسن إليه النظـر وبعضـهنّ يشـرن إليه بالأصابع. كانت الشمس قد ارتفعت كثيراً. كانت تُلهب السـماء والأرض. فالحقول كالمشتعلة وَلَها ومض رهيب. قاتل، هذا ما كانه

هو. لماذا قتلَ إذن ذلك البـائع الجـوّال من أجـل أن يسـرقه؟ كـان يمكنه أن يشتري منه هذه المرآة التّعسة، أليس كـذلك؟ فقـد كـان لديه مال كافٍ لذلك. كان غنيّاً جدّاً في تلك الأيـام. كلّا، لم يكن وارداً أن يشتريَها بثمن ما. فقد أكّد له فقيه أنّ المرآة كانت مسحورة، ولا ينبغي دفع قطع نقدية مقابلها، بل تجب سرقتُها بكل بسـاطة، وإلّا فلن تبقى لها أية قيمة، ويضيع منها جوهرها. «إذن، فقد سـرقتُها، سرقتها وقتلتُ البائع». كان البائع سـيُبَلّغ عنـه، أليس كـذلك؟ بـل ربّما كان قتله. لم يكن السوق يخلو من أشدّاء بلا ضمير، من قتلـة يُؤْجرون ومن قُطّاع طرق وما شابه. بالتأكيد، ما كان البـائع ليتركـه ينجو، وهو يُدرك أن البائع كان قـادراً على ذبح أبيـه وأمـه من أجـل قطعة خبز. ثم، ما همّ! بائع زائـد أو بـائع نـاقص! قـال في نفسـه. استعملَ خنجراً طويلاً من صـنع أمـازيغي. كـان قـد ورثـه عن أحـد أسلافه. لم يعد يدري من هو. كان أسلافه من الكثرة بحيث لم يكن وارداً أن يُحصيَهم. ارتعشت المرآة، التي كانت مـا تـزال على الأرض. ورأى فيها الحركة التي قام بها لقتـل البـائع، والسّـلةَ وهي تسـقط، مهتزّة بمفعول تشنّجات الضحية، فيما كانت تتناثر منها محتوياتها بكاملها على الثرى. لم يكن هنالك حاضرون، لحسـن الحظّ. كانت

الساعة الثانيةَ عشرة لحظتَهَا. كـان النـاس قـد جلسـوا إلى موائـد الطعام في أنْـزالٍ* جُـدرانُها ضـاربة إلى الحُمـرة، أمـا الآخـرون من أمثاله، اللصوصُ والقتلة، فما كانوا حتى ليتوقفـوا فـيزعجوه. لقـد كانوا يُكنّون كراهية عمياء للباعة، وحتى لشديدي الفقـر منهم. لكن لم يكنْ هنالك أحد حين أقدم، بلا تـردّد، على جريمتـه. ولـذا فإنـه سَطا، بالإضافةً إلى المرآة، على بعض الأشياء الصغيرة الـتي باعهـا بأرخص الأثمان بعد ذلك بساعتين. « ما أبعد كلّ هذا ! ما أبعده في الزّمن. لنكـفّ عن الحـديث عنـه. أو فلنقم بمحـوه نهائيّـاً ». إِنْحنَى ليلتقط المرآة، لكنّها قاومته. فوقف وبدأ يهوي عليها بضـربات من قدمه، بُغية تكسيرها وتَشظِيتها. كان في حالة هياج رهيب، كان آلـة جهنمية فعلية. ولم تتحطّم المرآة، بل لم تطلهـا أيٌّ من دهسـاته. «إنها تُقاومني، تواجهـني، سـليلةُ الجنّ!» وإذ نطـق بهـذه الكلمـة الأخيرة، أصابته، بسرعة البرق، لكمـةٌ زعزعتـه وجعلتـه يسـقط على ظهره، ذاهلاً. حين وقف على قدميه، رأى أنّ ما كان مرآة قد أصـبح عموداً من نار أطول منه هو وأضخم. تملّكه الخـوف وأراد أن يفرّ.

---

* أنزال: جمع نُزُل، وهو فندق صغير، شعبيّ، به مطعم في الغالب.

لكنّ يداً قبضتْ عليه وخضّته بشـدّة كمـا لـو كـان شـجرةً ضـامرةً، مُطقطِقة. «سنذهب بك، زمجر أحدهم. سنُريك ما لن تنساه بِئسـر، أيّها اللص القَذِر!». فجأةً، رُفِع من على الأرض. وغُشِيَ عليه.

حين استيقظ، وجد نفسه في قاعةٍ سقفُها يطـال السّـماء، جالسـاً على مصطبة من غَرانيت بدا أنه منغـرسٌ فيهـا. أراد أنْ يُقْـدم على حركةٍ، أن يتنشّق أو يفـرك جفونـه، لكنْ لم يكن هنالـك أي ردّ فعـل يستجيب لرغباته الشعوريّة. كانت تسجنه قوة لم يعهدها من قبل. هل كان في الجنّة أم في جهنّم؟ لم يكن يدري شيئاً. مع هـذا، فقـد كان صافي الذّهن. بل كان يتذكّر اللحظة التي اقتُلِعَ فيها من الأرض، مثلما نبتة شوكيّة أوحبّة طماطم. ثمّ حاول أن يقوم بحركـة أخـيرة، لكنه أخفق كلّيةً. بقي منغرساً في الحجر أربعـاً وعشـرين سـاعة، بلا أكل ولا شُرب. «ها قد مرّ وقت طويل لم يذقْ خلاله الشيخ طعامـاً، ولم يُصَب بعد بمغص في البطن، قال في نفسـه، وقتٌ طويـل لم تشربْ خلاله يا عزيزي. هذا كثير. لكن مـا الـذي تشـربه في العـادة، قُلْ؟ ماءً؟ هاهاها! إنّه حليب حِمارة، حليب حِمارة هو ما تشـرب، يـا صديقي، ولا شيء غيره!». فوق رأسِه، كانت وطاويط عملاقة تُصـدر حَفحفةً، لكنّه لم يكن يراها. كان يسـمع فحسـب الأصـوات الفظّـة لأجنحتها. خلفه، علتْ زمجرة جعلت القاعة تـرتعش. أمامـه، هَـوت وانفرطتْ سحابـةُ كربون، سوداء ونتنة. وإذ كان لا يستطيع الحركة، فإنه لم يقم بشيء. نظر إلى تلـك الكتلـة الشـنيعة دون أن يشـعر

حتى بالرهبة. « لا يستطيع قاتل أن يستشعر الخوف أو الإيمان، فكّر هو ». كانتْ مِزَق السّحابة تتمزّع ببطء، فتنشـأ من مِزَعهـا كائنـات صغيرة الحجم تقفـز وتتـداخل بعنـف، مُطلقـةً في هـذا المشـهد المُريب أصواتاً خافتـة كـان صـداها البعيـد يـزداد ارتفاعـاً بشـكل تصاعديّ ويتكسّر على وسط مصطبة الغَرانيت منقسِماً إلى خنـاجر كثيرة كان أيُّ جسدٍ عادِيِّ التكوين سيُحِسّ أنها تبعث فيـه إحساسـاً بالعذاب.

«كلّ هذا مُجَرَّدُ حُلم، قال الشيخ لنفسِه. » وحـاول أن يصـيح، لكنْ ما من صوت خرج من فمه. وإذ كان بمستطاعه أن ينظر إلى أسفل، فقد رأى هيئة شنيعة تتلوّى قرب قدميه. علجوم مـا، لَـزج، تنتشـر الدمامل على جلده الذي يَعجّ بقَمْل أحمر وأخضـر. وأدرك فـوراً أن العلجوم كان الكلمةَ التي أراد أن يقولها بصوتِ جهوريّ ليُبعِد ذُرّيـة السّحابة التي أصبحت الآن على بُعد خُطىً منـه. وقـد ركّـز بسـرعة وأعطى أمراً للعلجوم بأن يرجع إلى دمـه. لكن الدّويبـة لم تتحـرّك. لحظتها انبثقت أمامه صورة عابرة : لقد رأى العلجـومَ يتوجـه نحـو الحشرات، بأناة شديدة، نافثاً ومُسيلاً من فمه بَلْغَماً لاهباً. ولَكَـمْ

استغرب حين أبصر، إذ نظر إلى أسفل، العلجـوم وهـو يتمايـل على قوائمه متجهاً صوبَ الكائنات الصَّـغيرة. «يقينـاً! إنّـه فكـري الـذي يُوَجّهه، قال في نفسه.» كان العلجوم يَريـل ويبصـق مرافقـاً ذلـك بصفير محتدم. كانت الكائنات القميئة تفرّ أمامـه في غـير انتظـام، والأكثر جرأة من بينها كانت تقفز إلى ظهره بهدف النفاذ إلى جسمه من أجل تخريبه، لكنّها سرعان ما كانت تسقط أرضـاً وقـد احـترقتْ وصارتْ رماداً. حينها، بدأ الشيخ يتحرّك. شَـعَر بمفاصـله وعضـلاته وهي تطقطق. أحسّ بالألم، ورَغِب مرّةً أُخـرى في أن يَصـرخ، في أن ينهض، لكنْ هَيهات. سقطتْ من فمه المُزْبِد علاجيمُ أُخرى بشـعة. رآها وهي تمضي، مثلما العلجوم الأوّل، لِتَدْهَم الدُّويبات الصـغيرة. كانت هذه الأخيرة قـد رصّـت صـفوفها، بـل وشـكّلت دوائـر حـول العلجوم الأول، أو حـول فكـرتي الأولى، قـال في نفسِـه. كـانت الآن تُلَوّح بأسلحة، فِعلاً، ببنادق ومشـاعل كبريتيـة كنّ يجعلنهـا تـدلق لهيبها على العلاجيم التي كانت مرتزقتَه هو. كان الّنزال على أَشَدّه، رهيباً أكثر من منحدرات جبال بلده، الـوعرة، شـبه الشّـاقولية، ذات الأحجار المُسَنّنة القاطعة: «آه! بلدي! لو أمكنني أن أجد نفسي فيـه في غَمضة عين». كانت كثير من تلك الكائنات الصّغيرة تُشَكِّل الآن

سحابة رماديّة في وسط ساحة المعركة. وكانت العلاجيم تُقاتل بضراوة. بعضها جُرِح وسال منه الدّم وفاحت نتانته وانتشرتْ في الجوّ، لكنَّه هو كان يجد لتلك الرائحة أريجَ عطور جزيرة العرب. والأكثر بسالة مِنْ بين العلاجيم كنّ يَسحقن ويُحرقن ما يجدنه في طريقهنّ. كانت السّحابة تنتفخ مثلما قِربة. ثمّ ارتفعتْ، وعلتْ واختفتْ. على البلاط، لم يكن هنالك شيء، لا دم، ولا علاجيم. نهض الشيخ، خَضّ جسده قليلاً. رأى على الأرض حُطامَ المِرآة، فجمعه بأناة وجعله وسط منديل قديم لفّه فيه. وفوراً أدرك ماذا سيفعل.

كان الشيخ المُسِنّ يمشي صوب الجبل، وعلى ظهره صُـرّة. وكلّمـا بدا له أنه يدنو من مقصده، كان الجبل يبتعـد. «كـان عليّ أن أجلب معي الأتـان. على أيّ، أنـا متعـوّد!» لكنّ الجبـل كـان يَتفلَّت منـه باستمرار، فآناً يكون في مكان وآونة يصبح في مكان أبعـد. بـل إنَّه، في بعض الأحيان، كان يختفي بكل بساطة. لقد مرّ نصف يـوم منـذ أن غادر القرية. ولم يكن يتقدّم البتّة. حتّى لكأنّـه يزحـف. لا، لم يكن يزحف، كان يمشي فعلاً على قدميه؛ والأحجار التي ترطمهـا قـدماه كانت تتدحرج في كلّ الجهات، مستثيرة من حولها غبـاراً ثخينـاً. إذا كان الجبل ينطمس من حين لآخر، فذلك لأنّ بصره لم يعد ثاقبـاً، أو إنّه، على أيّ حال، قد فقد من الحِدّة التي كـانت لـه في مـا مضـى. «في ما مضى! في مـا مضـى، كنتُ شـابّاً مِقـداماً، سـريعَ الحركـة، صاعقاً، ها ها ها ! قتلتُ ضِباعاً بَشَرِيّة وغيرَها! بـل إني قـاتلت ذاتَ حرب. أيُّ حرب كانت، يا للشيطان! أيُّ حرب؟ لم أعد أتذكّر. ليس ذلك مهمّاً. دعنا من كُـلّ هذا! »

لم يكن يتوقف قط ليستجمع أنفاسه، كـان يسـتمرّ في المشـي، لا ينهج، ويتوخى فحسب الوصول إلى التلال المحاذيـة للجبـل. هـذا الجبل، كان يعرفه جيّداً. كانت جدته تصـطحبه إليـه لقطـف الزعـتر

وأعشاب أخرى لم يكن يعرف أسماءها. بل إنه هام في أرجائـه، ذات ليلة، ليطارد بنـات آوى وأرانب. كـان لديـه وقتهـا بندقيّـة صـغيرة جميلة حصل عليها كالعادة... بالسّرقة. لكنْ لِمَ كـان الجبـل يبتعـد الآن؟ هل كان بعدُ هو نفسه؟ وهو، أكان ما يـزال من هـذا العـالَم؟ ألم يكن قد مات، ويسترجع الآن أشـياء طُمِـرتْ منـذ وقت طويـل، مهروسةً من قِبَل ذاكرتـه؟ كـان يطـرح على نفسـه هـذه الأسـئلة وأخرى كثيرة، لكنّه لم يكن يُنكر، وإنْ على شيء من المَضـض، بأنـه كان مـا يـزال فـوق الأرض الـتي ذرعهـا أبـواه وأصـدقاؤه القلائـل وكثيرون غيرهم، والتي عاشوا فيها الحُبّ، وقَتلوا فوقهـا وصَـرخوا، على هاته الكرة التي كان يعرفها قليلاً ومن أجلها كان قد قاتـل في ليبيـا وأوروبـا. لم تكن الأرض هنـا غَضـراء، بـل هي جافّـةٌ يَبَسٌ. شُجيرات في كلّ مكان تقريباً، نباتات شـائكة عملاقـة، والكثـير من الزّيزان، بل جحافلُ منها. لِحُسن الحظّ أنه كان يقذفها من حين لآخر بحفنة من الأحجار الصغيرة... وقتها، فحسب، كـانت تَصـمت. ربّمـا كان الخوف يستبدّ بهـا، مثلـه هـو، أليس كـذلك، مثلـك أنت، أيهـا الوغد! في السّماء، ما من غيمة، ما من هبّة ريح أيضاً. نُسـور، نعم، هنا وهناك كانت نُسور تدور حول رأسه في دوائرَ مشـتركة المركـز. أكانت تريد أن تهوي على عمامته لتُقَطّعها مِزَقاً وتثقب جمجمته أَم

ماذا؟ «كلّا، كلّا، لا بدّ أنها تبحث عن ثعابين، فكّر هو. » ثعـابين، هـذا ما تأكله النسور... وإلّا فبعض اللبونات الصّغيرة. ما من سنجاب في ذاك المكان، هنالك الزّيزان فحسب، أو بـالأحرى أصـواتُها، وليسـتْ حتّى مُنَغّمة، يا للصَّخَب. ألا تكون هذه أصداَء أصـواتِ الجحيم؟ ألم يكن قد أخطأ الطّريق؟ « لا، لا، لنسـتمرّ في السّـير، فالقريـة بعيـدة الآن، ثمّ... بالنظر إلى مـا أُسـاويه هنالـك... للاحـترام القليـل الـذي يُبدونه لي... أُوفْ! إذا جاءك الخير من الشيطان، فاقبَله يا هذا! ليس هنالك ما تخافه. على أي حال، فالآخرون يعتبرونك تِيساً مُسنّاً خَرِفاً. إذن، اغْنَم ما في متناولك في الحاضر. تزوَّدْ، يا رجل، تزود بـــوفرة!» فجأةً، ظهر له الجبل. رأى في البدء صخرة عظيمـة، ثم رفـع عينيـه فبدا له ما يشبه القمّة، وبالطبع فهو لم يستطع تمييزَها جيّداً. وإذْ كانت هنالك أمكنة بِها ظلّ، فقد أباح لنفسه التّوقف لبضع لحظات. فجلس وأخرج من صرّته خبزةً كانتْ قد يبسـت وانكمشـتْ، وقربـةً صغيرة مليئة بحليب أتان، فشرب وأكـل. «كـان عليّ أن أجلب معي الأتان، كرّر لنفسِه، فما معي من حليب يُوشِك أن ينفَد. لكن ما هَمّ، مـا دامت الرحلـة تقـترب من نهايتهـا» وقـف وتمطّى ومضـى في طريقه من جَديد. كانت الطريق الآن صاعدةً. لقد صارت متعرجـــة

ووعرة، تتخللها هنا وهناك صخور ناتئة رُؤوسُها دقيقة كالأسِنّة. لم يكن الرجل المُسِنّ يأبه بذلك، فقد كان يعرف المكان جيّداً. لقد مـرّ من هنا مرّات ومرّات، لكنه لم يسبق أن رأى في هذه الأمكنة أحـداً. فالناس يُفَضّلون، للذهاب إلى السّـوق، أن يسـلكوا طُرقـاً أوسـع لا خوف فيها على الحمير والبغال. لكنّ حمارته هو، العجفـاء العجـوز، كانت تَبُزّ ما عـداها. يـا حِمـارتي العزيـزة، قيمتـك أكـبر من أطنـان اللحوم التي يُمكنهم أن يُقَدّموها لِحشد كبير من الجَـوعى! هـا هـا ها! كان المضْيق الجبلي قد بدأ ينطمس. شيئاً فشيئاً، كـان يُصـبح مهوىً شديد الانحدار، ثم هاويةً. ومع ذلك كان الرجل المُسِن يُتابع سيره. فقد مرّ يومان وذلك الأمـر يعتمـل في ذهنـه. كـان يجب أن يُقابل ذلك الفقيه السّاحر، ذلك الإمّعة الشائخ الـذي لم يكن يعيش إلّا في كتبه. «نعم، سأتوصّل إلى ذلك، سأصل إلى السّوق، بالتّأكيد. قسماً بـالجِنّ أجمعين، سـأ...» تحـرّكت الأرض، واختفى الجبـل من جديد. أمامـه، كـانت هنالـك علاجيم، علاجيم حمـراء لاهثـة. لقـد تكلّلتْ رحلتُه بالفشل. «سأُعيد الكرّة، قال في نفسه».

محتويات "دمي الذي يَرشو اليأس":

- تقديم
- مختارات شِعرية
-قصة قصيرة: الدّفن
- صفحات من رواية "أنا الحامض"
- صفحات من رواية "رائحة شحمٍ مُعَتَّق"

عن المترجم:

مبارك وساط: شاعر ومُترجم مغربيّ.

مجموعاته الشعرية:

- على دَرج المياه العميقة -محفوفاً بأرخبيلات -راية الهواء -فراشة من هيدروجين -رجلٌ يبتسم للعصافير -عيونٌ طالما سافرتْ.

من ترجماته:

شذرات من سِفر تكوين منسيّ، لعبد اللطيف اللعبي -نادجا، لأندري بريتون -ستولَد شمسٌ من أهدابك، لجمال الدّين بن شيخ...

دَمي الذي يَرشو اليأس

مختارات من شِعر محمد خير الدّين ونثره

ترجمة مبارك وساط

ثمّة كلبٌ ينبح في مكان ما / من قلبي / و بلسانه
يُريد أنْ يُطارد / أولئك الذين يسْلبونني حياتي /
أولئك الذين يستمْرئون شُـرْبَ لِتْراتٍ / مِن دمي الأسْود /
ثمّة كلبٌ يقتفي آثار بنات آوى / التي تَـنْـهش
بِـأنياب مقـضْـقِـضَةٍ / حياتي /
حياتي النّاقة الضّائعة / في هروبها عبر الصّحْراء/
حيثُ يَـضيع دمي الأسْود / حليبُها / يا أسْلافي /

منشورات حِبر